



تاريخ ما أتمله التاريخ

# تحت سماء المغرب

بقلم  
حبيب جاماتي







# تحت سماء المغرب

تاريخ ما أهمله التاريخ

بقلم : جيب جاماتي





## إهداء

الى المجاهدين الأحياء في بلدان المغرب العربي ، لكي  
يلذكروا المجاهدين الأموات ، الذين حرروا الأوطان الصغيرة في  
هذا الجزء من الوطن الكبير ، وصانوا كرامتها ، ودفعوا عنها  
الأذى ، وخلصوا لها في السراء والضراء ، وكانوا نبلاء  
شرفاء في حياتهم الخاصة والعامة ، أهلى هذه المجموعة من  
أقاصيص البطولة والفداء ، والحب والوفاء ، المستقاة من  
هوامش التاريخ قديمه وحديثه .



## تصدير

عن « الدار القومية للطباعة والنشر » صدرت حتى الآن عشر حلقات من « تاريخ ما أهمله التاريخ » وهذه هي الحلقة الحادية عشرة أقدمها للقارئ بعنوان : « تحت سماء المغرب » لأنها تضم مجموعة من الأفاصيص التي وقعت حوادثها في البلاد العربية الغربية : المغرب الأقصى أو مراکش ، والجزائر ، وتونس - أو القطر المغربي والقطر الجزائري والقطر التونسي - كما كان يحلو للعرب أن يسموا تلك الجهات التي التحقت بإمبراطوريتهم المترامية الأطراف .

ففي هذا الكتاب اثن عشر قصة وقعت حوادثها في المغرب العربي ، وفي حقبات مختلفة من التاريخ القديم والحديث ، أي قبل الميلاد وبعده ، وقبل الفتح الاسلامي وبعده ،

وتاريخ المغرب العربي عريق مجيد ، ولشعوبه مواقف مشرفة على كثر الاجيال ، في جميع الميادين والمجالات . وفي هذه الأفاصيص التي يضمها كتاب « تحت سماء المغرب » بين دفتيه ، حوادث مما أهمله التاريخ ، في عهود تفرق في خلالها الحكم وتطورت الشعوب . فقديما « عرف الشمال الافريقي غزو جماعات جائرة من الشرق برا أو من الشمال بحرا » . وتركزت كل جماعة منها في البلاد التي غزتها ألزوا من حضارتها ، أو رواسب من ثقافتها ، حتى جاء الفتح الاسلامي العربي ، فصهرت كل الحضارات في بوتقة حضارته وأفرغت كل الثقافات في قالب ثقافته . وحدث في تلك البقاع ذلك الامتزاج العجيب الذي لم يذكر التاريخ مثيلا له في صلفحاته ، الا هيمما يتعلق بالعرب الفزة الفاتحين ، وبالنسبة الى الشعوب التي دخلت في طاعتهم ، أو

انضمت اليهم بدون حرب ولا قتال ، فما مرت الأيام والأعوام ، حتى كان كل عنصر غريب قد ذاب في العنصر العربي ، وحتى كانت البلدان المغربية كلها قد اكتسبت ذلك الوجه العربي الواضح الناصع، الذي عرفت به فيما بعد وحتى أيامنا هذه، والذي بقي مختلفا برونقه ، وخصائصه ، وخواصه ، وميزاته ، وحيوته ، بالرغم مما تعاقب على الشمال الافريقي من كوارث ومحن وتقلبات ، على ايدي حكام ضالين من ابناءه ، او طغاة مستبدين من الاغراب المستعمرين ...

واليوم ، وقد دفرقت اعلام الحرية وخطقت رايات الاستقلال في فضاء الشمال الافريقي ، وهو ما درج العرب المشاركة والمقاربة على تسميته بالغرب العربي - لانه يقابل من الناحية الافريقية المشرق العربي الممتد في الناحية الآسيوية - فان الشعوب التي تحررت ونبلت الحصول والاستكانة ، وانطلقت في ميادين الرقي والمعرفة تصول وتجول ، فان الحديث عن التاريخ ومادونه من وقائع الماضي البعيد والقريب ، يثر في النفس الشجون ، ويحيى في الصدر الآمال ، ويقوى عزائم الصاملين في سبيل حاضر جدير بذلك الماضي ، بمستقبل الفضل من الحاضر والماضي .

وبصور هذه الحلقة من اقصيص « تاريخ ما امله للتاريخ » بعنوان : « تحت سماء الغرب » تكون الدار القومية للطباعة والنشر قد اصدرت احثى عشرة حلقة هي كالاتى :

الحلقة الاولى : بطولات عربية

الحلقة الثانية : الناصر صلاح الدين

الحلقة الثالثة : مصر مقبرة الفاتحين

الحلقة الرابعة : انكس العرب

الحلقة الخامسة : الجنة في ظلال السيوف

الحلقة السادسة : مصر الاقلمين

الحلقة السابعة : بين جدران القصور



الحلقة الثامنة : على ضفاف النيل

الحلقة التاسعة : قيصرية وسلاطين

الحلقة العاشرة : غبار المعارك

وأمل أن تجد هذه المجموعة الجديدة قبولا حسنا لدى  
القارئ ، مثل سابقتها ، والله ولى التوفيق .

حبيب جاماني



## زیتونے علی قبر

\*\*\* وانتشرت زراعة الزيتون  
وسميت البلاد بسببه « تونس  
الخضراء » \*



على الشرفة الفسيحة ، المطلّة على الميناء ، جلس « أزوداس » كبير الكهنة في هياكل « صور » وحوله أفراد أسرته جميعا : ابنته الكبيرة وزوجها ، وابنته الصغيرة التي لم تتخذ لها بعلا بعد ، وأخوه وأولاد أخيه ... أما زوجة الكاهن فقد ماتت يوم رأت ابنتها الصغيرة النور ...

وكان الناظر الى الميناء من مكان مرتفع - مثل شرفة الدار التي يقيم فيها أزوداس وأسرته - يدرك لأول وهلة أن أسطولا من السفن المندة للرحلات الطويلة على أهبة الإبحار الى بعيد ، للاتصال بأحدى المستعرات الفينيقية المنتشرة على سواحل البحار ، أو لانشاء مستعمرة جديدة في مجاهل الارض .

وكان أزوداس ، من ناحيته ، قد أعد العدة للإبحار على ظهر إحدى سفن الأسطول ، مع ابنته الصغيرة « أسماتا » تلبية لدعوتين : دعوة الكهنة في هياكل قرطاجة الموجهة اليه ، ودعوة القائد «براجليون» خطيب ابنته ، الموجهة الى الفتاة ...

ولم يكن في وسع الاثنين أن يرفضا الدعوتين : فكبير كهنة «صور» كان الرئيس الأعلى للكهنة جميعا في الهياكل التي شيدها الفينيقيون في مستعمرتهم الجديدة قرطاجة على ساحل افريقية الشمالى . وإذا كانوا يلحون عليه باللحاح اليهم ، فما ذلك الا لانهم في حاجة ماسة الى ارشاداته ونصائحه وثاقب افكاره . أما هي ، الفتاة أسماتا ، فانها قد رضيت مختارة بأن تربط حياتها بحياة ذلك القائد الشاب «براجليون» الذي ارتقى بسرعة مدحضة مدارج الشهرة والمجد ، في الحروب التي خاض غمارها . وإذا كان يلح عليها بأن توافيه الى قرطاجة ، فما ذلك الا لأنه مضطر الى البقاء هناك ، حيث تدعوه المصلحة : مصلحة ومصلحة الوطن ...

كانت « اليسار » ملكة صور قد أبحرت مع أسطول لجب حاربة من فينيقية على أثر مأساة عائلية دموية ، في القرن التاسع قبل الميلاد ، فتبعها عدد كبير من الأعوان والانصار ، ونزلت ساحل البحر المتوسط ، على مسافة بعيدة من الموانئ المصرية والليبية .

واعتمدت اليسار - التي يسميها اليونانيون « ديدون » - أن تنشئ في ذلك الموضع مستعمرة جديدة ، ونقلت عزمها بلا إبطاء فبنيت من الأرض ، على الرمال وبين الصخور ، مدينة أطلقت عليها الملكة الشريفة اسم « قارت حداتش » وحما كلمتان فينيقيتان معناهما « المدينة الجديدة »

وتداولت الألسنة هذا الاسم من بلد إلى بلد جيلا بعد جيل ، فأصبح « قرطاجة » وهي المدينة التي قدر لها أن تهز الامبراطورية الرومانية هزا وتزعزع أركانها وتدفع بها في وقت من الأوقات إلى حافة الهاوية ، بعبادة هانيبال وأمرته . ولكن الرومانيين تمكنوا في النهاية من تخريبها .

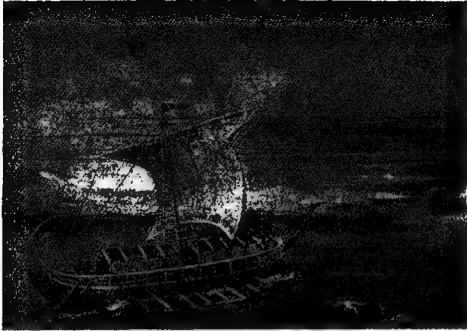
قامت المدينة العظيمة اذن على ذلك الساحل الافريقي ، وامتدت فيها الشوارع وانتظمت الدور والقصور ، وانتقلت إلى قرطاجة عبادة آلهة فينيقية : بعل ، وملكات ، وعشتروت ، وأدونيس . وانتقلت مع طقوس العبادة تقاليد الفينيقيين وعاداتهم وأساليبهم في الحروب والغزوات والتجارة والصناعة والزراعة . وبعد أن زالت أسباب الجفاء الأولى بين مؤسسي قرطاجة والوطن الذي جاؤوا منه ، توثقت الروابط بين المدينة الزاهرة وقواعد الفينيقيين على سواحل لبنان في شرق البحر المتوسط .

وكان القرطاجيون ، الذين انصرفوا على الخصوص إلى الأعمال والفنون الحربية يعتمدون على الوطن الأول في كل ما يتعلق بالشئون الدينية والتجارية ...

ومما كانوا يستوردون من فينيقية كميات كبيرة ، زيت الزيتون ، الذي كانوا يحتاجون إليه لحيوشهم وهياكلهم في آن واحد للقتال وللعبادة .

ولما أعد الكاهن الأكبر أزوداس نفسه للرحيل من صور إلى قرطاجة كان عليه أن يسهر ، في خلال رحلته ، على شحنه هائلة من زيت الزيتون أعدت خصيصا في مصاصر لبنان لتموين قرطاجة ومصانعها وهياكلها .

ولكن شيئا آخر كان يشغل في آن واحد بال الكاهن ويحمله على التفكير : كان أزوداس شديد الاهتمام باتخاذ الحيلة لنفسه ، لكي يتمكن من المحافظة على العادة القديمة التي توارثها أفراد أسرته إبا عن جد ، منذ أن وقفوا أنفسهم لخدمة الآلهة في المعابد . وتلك العادة أصبحت من التقاليد المقدسة لم يشذ عنها أحد من الكهنة الذين خرجوا من تلك الأسرة المريقة ..



سفينة من السلن الليثية التي جاءت البعاز

قال ازوداس :

— هذه آخر مرة يلتئم فيها شملنا في مجلس واحد ، أيها الاعزاء ،  
قبل ان نفترق — وقد يكون الفراق أبديا لا لقاء بعده — غدا ، عند الفجر ،  
سنبحر من هذا الميناء الى قرطاجة ، انا وامساتا • وقد زودتكم بوصاياي  
فأرجو ان تكونوا عليها امانة • واذكركم مرة أخرى بما أوصيتكم به بالخاح  
فيما يتعلق بأغراس الزيتون •  
وهنا قال أخو ازوداس :

— أرسلت بنفسى ، أيها الأخ الحبيب عشرة أغراس من أجود أنواع  
الزيتون الى ظهر السفينة التي تقلك غدا ، وسأوافيك فى المستقبل بغيرها ،  
كلما أقلعت سفينة الى قرطاجة •  
فأجاب ازوداس مرتاحا :

— أشكرك يا أخى : فانا حريص على ان تزرع شجرة زيتون على  
قبرى ، كيلا يختلف هذا القبر فى شئ عن قبور من سبقوني الى العالم

الآخر . من أفراد أسرتنا الكهنة . فقد غرست زيتونة على قبر كل منهم ، بحيث أصبحوا الآن ينامون نومهم الأخير في غابة من الزيتون في ظاهر هذه المدينة ، وخلف أسوار صيدون ، وفي سفح الجبل عند مصب نهر أدونيس ، بجوار بيبولس ! وشجر الزيتون لا يتبت في حقول قرطاجة وسهولها . ولهذا ، أردت أن أحاط للمستقبل ، وأن آخذ مئ من أغراس الزيتون ما يجعله في متناول اليد ، يوم أرحل عن هذا العالم فأجد غرسا منها يزرع على قبري ، عملا بما درجنا عليه من قديم الزمان .  
الزمان ..

وبعد سكوت قصير قال أزوداس :

— لست أدري كيف أن اخواتنا هناك لم يفكروا بعد في سد هذه الثغرة في ثروتهم الزراعية ، ولم يعملوا الى زراعة أشجار الزيتون في بلادهم ، لاستخراج زيتها ، واستخدام أعوادها وأوراقها ، كما نفعل .. فانهم يعملون علينا في تموينهم بالزيت والزيتون ، ولا يعملون قط بزراعة الشجرة الجميلة التي تغطي سفوح جبالنا وسهولنا .

وقالت اسماتا :

— أبى ... قبل أن تزرع غرس الزيتون على قبرك بعد عمر طويل مديد ، ساذرع واحدا منها ، يبنى هذه ، في حديقة الدار التي ستقيم فيها ، يوم تحفلون هناك ، بزفافي ... وسيكون غرس الزيتون هذا تذكرا لزواجنا ، براجليون وأنا !

ووافق الجميع على هذه الرغبة التي أبدتها الفتاة ، وقضوا وقتهم في تلك الليلة المقمرة في تبادل الاحاديث ، حول عميلهم الكاهن الأكبر لتوديعه قبل الرحيل الذي قد لا يلتقون بعده .

قوبل أزوداس في قرطاجة بمظاهر التكريم والتعظيم ، واستبشر الناس خيرا ببقومه ، بالنظر الى ما كان يتمتع به من شهرة واسعة وسمعة طيبة ، والى الخلاقات المستحكمة بين كهنة الهياكل في قرطاجة ، والتي لم يكن هناك بد من ازالتها ، حفظا لكرامة الآلهة وصيانة لطقوس العبادة .

وقوبلت اسماتا ، الفتاة الجميلة اللطيفة ، بمظاسير الترحيب والفرح ، من حبيبها القائد الشاب براجليون . الذي كان على أهبّة



السفر مع الجيش القرطاجي في حرب جديدة ، والى غزوة توسع شقة  
الممتلكات القرطاجية بإضافة رقعة من الارض اليها .

وفى بضعة أيام فقط ، تمكن ازوداس الحكيم الحليم من اعادة  
الوثام الى هياكل الآلهة ، وإزالة اسباب الحصار من نفوس الكهنة  
فتنفس الناس الصعداء ولهجت السننهم بالخناء على رسول السلام الذى  
لوفدته اليهم « صور » الفينيقيّة .

وأقام القرطاجيون عرساً لابنة الكاهن لم تشهد مدينتهم مثله من  
قبل . فقد اشترك فيه السكان جميعا : الكهنة اكراما لكبيرهم ازوداس  
والجنود اكراما للقائد براجليون ، والشعب لانه مرح دائم الرغبة فى  
اغتنام الفرص ليرقص ويغنى ويأكل ويشرب على حساب الاغنياء بين  
حرب وضعت أوزارها ، وحرب لم تبدأ بعد !

وبعد زفاف أسماتا الى القائد براجليون نفلت الفتاة ما قررتة فى  
ميناء صور ، يوم التأم شمل الاسرة على شرفة الدار ، فزرعت غرس  
زيتونة صغيرة فى حديقة بيتها الجديد ، أمام الباب . ابقاء لذكرى اليوم  
الذى ربطت فيه حياتها بحياة الرجل الذى اختارها زوجة واختارته  
زوجا .

ولم تكن أسماتا تعلم ، وهى تفرس الزيتون ، أنها تغازل الموت  
وتدعوه لزيارة الدار .

فقد ذهب براجليون الى الحرب بعد زواجه ببضعة أيام .

ولم يعد من الحرب !

فقد هبت عاصفة هوجاء على السفن التى نقلت تلك الحملة  
القرطاجية الى جزيرة « مالطة » وكانت فى ذلك العهد ملكا للفينيقيين .  
وكان على الحملة أن تنطلق من تلك الجزيرة الى القارة الاوربية شمالا .

ولكن الاقدار شات غير هذا ، فحالت العاصفة دون استمرار الحملة  
فى طريقها واغرقت منها ثلاث سفن - منها السفينة التى كان يقودها  
براجليون .

غرق القائد ولكن رجاله تمكنوا من انتشال جثته من اليم . فحملوها  
الى قرطاجة حيث دفنت فى احتفال عسكري مهيب .

وأرادت عروس الميت التى حل بها المصائب القاسى ولم تنعم بحبها

ان يدفن زوجها في حديقة الدار ، أمام الباب ، بجوار الزيتون  
الصغيرة التي غرستها بيدها يوم زفافها !

وكان لها ما أرادت .

وبعد ان وارى الجنود قاندهم التراب ، ألقت اسماءا بنفسها على  
الضريح واستسلمت للبكاء والنحيب .

وبين يدي أبيها الكاهن الأعظم ، الذى حملها الى داخل الدار وقلبه  
الحرين يكاد ينفجر فى صدره ، تمتعت العروس الارملة قائلة :

— أبى ... جئنا بأغراس الزيتون لكى نؤمن زرعها على قبور  
الاسرة ... وما كنا نظن ان أول قبر نزرعها عليه سيضم سمادتي  
وعنائي !

غير ان حزن الفينيقية الحسنة كانت له نهاية — فلكل حزن نهاية ،  
حتى لو كان حزن العروس المحبوبة على عريسها المحبوب .

كانت اسماءا فى حوالى العشرين من العمر لما تزوجت وتملت فى  
شهر واحد .

ولما بلغت الثلاثين ، كانت زوجة لابن عمها ، الذى وافاها من  
صور ، وأما لأطفال أصحاب أقوياء .

ومات أبوها الكاهن الأعظم أوداس ، فدفن فى الحديقة أيضا ،  
بجوار القائد براجليون ، وغرست اسماءا على قبره شجرة زيتون أخرى  
عملا بتقاليد الاسرة !

وكانت أغراس الزيتون التى جاء بها الكاهن معه ، والتى أرسلت  
اليه فيما بعد من فينيقية ، قد وزعت على الحدائق والبساتين والمزارع ،  
فى قرطاجة وحولها ، فانتشرت زراعة الزيتون منذ ذلك الوقت فى تلك  
البقعة من الارض الافريقية .. واسم تلك البقعة اليوم «تونس» .

وبفضلها استحققت هذه البلاد الجميلة الاسم الذى لازمها منذ  
أجيال ، بعد أن دالت دولة القرطاجيين ، وتتابع الغزاة والفاطون جيلا  
بعد جيل : « تونس الخضراء » .

# الموت أو العار

تناولت الملكة السم من  
يد حبيبها وتجرعته تجنباً  
للعار • ولكنها أخلت على  
الحبيب عهداً بأن ينقله وطنه  
من الحكم الأجنبي ••  
فانقلب الخائن وطناً متطرفاً  
بفضل الحب ! ••





مرت « سوفونسيه » على هذه الارض مرور الشهب المارقة في  
الفضاء . وتناولها المنجل قبل الاوان سنبله لم يحن بعد وقت حصدها .  
قامت في ريمان الشباب ، ولكن بعد أن دوت اسمها في سجل التاريخ  
بأحرف من دم ونار ...

كان «هانيبال» بطلا عظيما بين الابطال العظام . ألفت اليه «قرطاجة»  
مقائيد امورها فتنازل أعداءها الرومانيين وقهرهم في الميادين وطاردتهم في  
مختلف الاقطار والامصار ، بجيشه المنظف ، مطاردة الثعبان لبغات الطيور،  
وأوشك أن يستولى على عاصمة ملكهم لو لم يداخله الغرور شأن العظيم  
تدله الاقدار وتغالي في تدليله !

وكان لهانيبال أخ يدعى «أسدر بعل» أصلي الرومانيين أيضا ، هن  
بعد أخيه ، حربا حامية ، وسار في الطريق الذي سار فيه أخوه العظيم من  
قبل ...

وسوفونسيه ، موضوع هذه القصة ، ابنة أسدر بعل ، رأت النور عام  
٢٢٥ قبل الميلاد ، ونشأت في كف أبيها الذي لقنها مبادئ الوطنية  
الصحيحة والاخلاص للعشيرة والتفاني في سبيل قرطاجة وسيادتها  
ومجدها .

بلغت الرابعة عشرة من العمر فأحبها الشاب القرطاجي «ماسينيسا»  
وكان جميلا مقداما . فقابلت الفتاة حبه بمثله وتماهد العاشقان على  
الزواج .

لكن الظروف حالت دون اتمام رغبتهما وتحقيق أملهما ، لان  
الرومانيين اكتسحوا افرقية الشمالية وزحفوا على قرطاجة ظافرين . فعقد  
العظام والقواد مجلسا برئاسة أسدر بعل لاتخاذ التدابير اللازمة أمام الخطر  
الداهم .

واستقر رأيهم على التحالف مع « صفاقس » ملك مورتانيا ، وهو  
الجار الوحيد في افرقية القادر على الوقوف في وجه الغزاة وفي طريق  
جيشهم الزاحف ...

عرضوا عليه المحالفة وبسطوا له آراهم ، فبيل الرجل أن يحالفه  
ويضع يده في أيديهم لصمد الغزاة الفاتحين ، ولكنه وضع لذلك شهرا  
واحدا ، وهو اعطاؤه الاميرة الفاتنة سوفونسيه زوجة له ...

كان صفاقس شبيخا مسنا ، فجعلت الفتاة تنتحب وتندب حظها  
لكن والدها اقنعها بقبول الشيخ زوجها لها ، قائلا ان سلامة الوطن من  
يدها .

وتغلب حب الوطن في قلب الفتاة على عاطفة الغرام . فكاشف  
خطيئها بالامر . وصدته بالحقيقة المرة . ولكنها اقسمت له انها احبته  
وتحبه ، وسوف تظل على حبها ولن تحب سواه ... غير ان الواجب  
المقدس ، الواجب نحو الوطن ... نحو قرطاجة المهددة ... يحتم عليه  
أن تضحي بحبها .

غضب ماسينيوسا وحقد على بني وطنه الذين سلبوه السعادة والهناء  
في الحب . وبعد أن قضى الامر وزفت الاميرة الجميلة للشابة الى الملك  
صفاقس الشيخ ، هجر الضابط العاشق قرطاجة ، وتاه بعض الوقت حائر  
لا يستقر على رأى ، ثم انضم الى أعداء وطنه ، وحارب في صفوف  
الرومانيين !

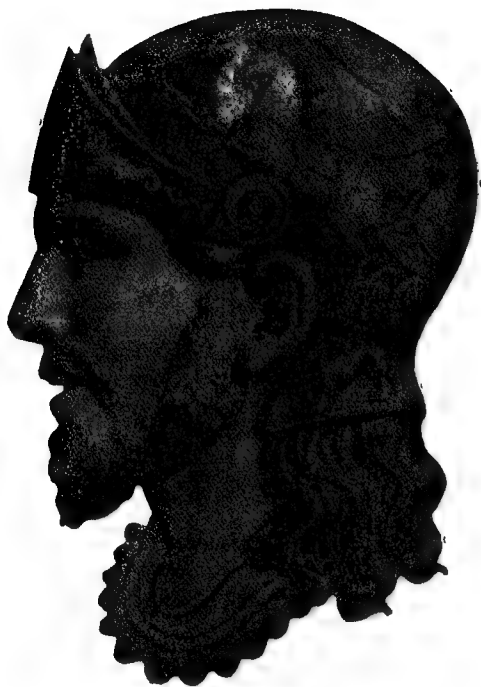
فطن القائد الروماني الى الفوائد التي يمكن ان يجنيها جيشه من وجود  
ذلك الثائر الناقم في صفوفه . فهد اليه بقيادة الفرقة الزاحفة على مدين  
«سيرتا» ومقل خصمه في الحب ، الملك صفاقس !

وكان الملك قد جمع جموعه وحشد جيشا لجبا سير جزرا منه لشباب  
أزر القرطاجيين ، واعتصم هو مع الجزء الثاني ، وهو مؤلف من خير  
جنوده ، في عاصمته المنيعة . وأقامت زوجته سوفونسيه بجانبه ، تشج  
المقاتلين وتواسى الجرحى .

مشى القائد الروماني العام - سيبيو الشهير بالافريقى - بجيشا  
الى قرطاجة وتقدم ماسينيوسا الى سيرتا فخرج صفاقس للقائه خصمه .  
ونشب القتال بين الفريقين ، فغلب الملك الشيخ على امره ، وانهزم فر  
الميدان ، فترجع الى داخل الاسوار ليحتوى بها ...

وخرب ماسينيوسا الحصار على المدينة من جميع جهاتها .

وتسرب الوهن الى قلب الملك ، وتولاه اليأس ، وأخبر زوجته ان  
ماسينيوسا حبيبها بالامس مقبل للانتقام منه . وطلب اليها أن تنجو



ماسينيسا  
ملك تونسيدا وموريتانيا

بنفسها وتهرب من المدينة وتمود الى قرطاجنة ، حيث ابوها وامها  
وعشيرتها ...

لكن الملكة رفضت باباء ماعرضه عليه زوجها ، قائلة ان واجبها انما  
هو في البقاء مكانها بين الجنود البواسل للدفاع الى النهاية .

وخان الملكة قلبها في اثناء الحديث ، وباحت شفتها بكلمات لم  
تستطع حبسها ، فادرك الزوج التعس أن الفتاة الجميلة التي استولى عليها  
ثمنا لمحالفته ، لا تزال على حبها القديم باقية ، وعلى عهدا السابق مقيمة  
بعد أن أصبحت امرأة وزوجة ..

فتولاه الغيظ واقسم امامها أنه خارج للقاء ماسينيسا ثانية ، وجها  
لوجه فاما أن يعود اليها حاملا على كفه رأس حبيبها ، واما أن يموت كريما  
في ساحة الشرف ، فيترك الزوج رأسه بين يدي العشيق !

وخرج صفاقس من المدينة مع فريق من الحامية . ودارت رحى القتال  
من جديد بين العلويين تحت أسوار سيرا ..

واستبسل الملك الشيخ ولكنه غلب على امره مرة أخرى ، وداخل  
ماسينيسا المدينة فاتحا ، وانتشرت فيها اشاعة مصرع الملك في حومة  
الوغي ...

وكان من عادات ذلك العهد أن يساق أهل المدينة المكتسحة أسرى  
في الاغلال يرسفون . وأن يقتسم الفاتحون اولئك الاسرى ، فيجملون من  
الرجال عبيدا ومن النساء سبايا ومخطيات ...

وهذا ما اعتزم الرومانيون أن يصنعوه بعد استيلائهم على سيرا ...

دخل القائد المنتصر على خطيبته بالامس . فانطلقت سنوفونسيه  
تؤنبه على خيائنه وانضمامه الى الاعداء ومحاربته ابناء وطنه تشفيا وانتقاما .  
ومما قالت له :

ما ذنب قرطاجنة لكى تسوء اليها ؟ اذا كان واحد من القرطاجيين قد  
اساء اليك ؟ وما ذنب وطنك لكى تؤذيه ، وتذله ، اذا كان بعض مواطنيك  
قد آذوك أو آذوك ؟

وانفجر ماسينيسا وراح يعاقب بدوره :

— لم أقدم على شيء مما فعلت الا حبا بك ! .. لم ادخل سيرا  
للاستيلاء على المدينة فحسب ، بل لاسترجاع الحبيبة والانتقام من الرجل



الذى اغتصبها منى ... والحبيبة أنت يا سوفونسيه ... وأقسم لك الآن ، بعد أن بلغت مرادى اننى على استعداد للتكفير عما فرط منى ومحو ذلك الماضى .. قولى كلمة ، وسأعلن من الآن انتقاضى على الرومانيين ، قولى كلمة ... قسولى انك ترضين بى زوجا لك ، فيتكفر كل شيء ... ولن يساق أهل المدينة أسرى الى روما ، بل يطلق سراحهم ، ويمطون سلاحا لمواصلة الحرب ... الحرب ضد روما !

كان الرومانيون قد أعلنوا أن ماسينيسا سيصبح ملكا على موريتانيا بعد أن يتم له الاستيلاء على سيرتا ، وأنهم يهبونه أيضا مملكة نوميديا المجاورة لموريتانيا . فلما عرض خطته على سوفونسيه ، كان الضابط الخائن إذن يخاطبها بوصفه الملك الذى حل محل زوجها على العرش !

فكرت الملكة فى الامر - وهى التى تزوجت بالرغم منها ، والتى بقيت على الوفاء لحبها الاول - فراقها ما عرضه عليها القائد المنصور ، فلما منها أنها بذلك ستنقذ شعبها من الاسر ، وتكسب ماسينيسا من جديد لوطنها قرطاجة .

وما فكرت سوفونسيه فى القبول ، الا بعد أن اعتقدت ان الملك الشيخ قد لقي حتفه ... فما الفائدة من البقاء على اخلاصها لزوج مات والذى أمره !

وافق الاثنان ماسينيسا وسوفونسيه على وضع القائد الرومانى أمام الامر الواقع ...

وصل سيبيو الى سيرتا . فافضى اليه ماسينيسا بما تم بينه وبين الملكة . وقال ان شعب سيرتا وموريتانيا ونوميديا انما هو شعبه ، لانه يبيع بالملك مرتين: الاولى من الرومانيين أنفسهم قبل دخول سيرتا وتنفيذا للمعاملة بينه وبينهم ، والثانية من الملكة نفسها التى رضيت به زوجا بعد مصرع صفاقس !

لم يحفل سيبيو بما قاله ماسينيسا . بل فاه امامه بمبارات تتم عن احتقار ممزوج بالتهديد ، وتهديد ممزوج بالاحتقار . وقال انه هو القائد العام الذى يمثل روما وارادتها ، وانه صاحب السلطان المطلق فى كل أرض يفتحها الجيش باسم روما ...

وقرر سيبيو اقامة عرض فى المدينة احتفالا بالنصر ، وأن يسير الجيش فى العرض ومعه الاسرى . وطلب من ماسينيسا أن يتخلى عن الملكة

لكى تساق ذليلة مكبلة بالسلاسل ، أمام الجيش ، مع غيرها من السبايا • •  
شقى الامر على ماسينيسا ، وأراد أن يحول دون ذلك وإن يدفع عن  
حبيبته العار والذل • فحاول أن يثير العامية لكى تعلن تمردها على سيبيو  
القائد العام وعلى روما ••• لكنه فشل •••

ودب اليأس الى قلب العاشق الحائر •

وفى تلك الاثناء ، دوى فى المدينة خبر كان له فى القصر الملكى وقع  
الصاعقة ، وفى قلب الملكة المسكينة فعل النصل الحاد •••

أن صفاقس لم يمت ! فقد أصيب فقط بجرح عميق • فحمله جنوده  
وأخفوه عن أعين الاعداء وأسعفوه بالمعالج •••

وهو الآن فى داخل الاسوار •••

بل هو الآن فى طريقه الى القصر •••

بل ماهو ذا صفاقس يدخل القصر •• فيأذن له القائد الرومانى بأن  
يختل بزوجته •••

قصت عليه سوفونسيه كل ما حدث ولم تحاول أن تخفى عنه شيئا  
من التفاصيل : انها لا تزال تحب ماسينيسا وترغب فى اتخاذه زوجها لها •  
وتريد أن تنقذ قرطاجة بفضيل ذلك الزواج لانه يعيد الخائن الى حظيرة  
الوطنية والصواب •

وغضب صفاقس ••• وشتم وهدد ••• ولكنه وجد نفسه مخذولا  
ضعيفا أمام امرأة عولت على الاصفاء لصوت قلبها فقط • فرماها بالخيانة  
والجبن •

وأسرع الى سيبيو يطلب منه اقصاده عن بلاد كان فيها السيد المطاع ،  
فأصبح الآن وقد ضاع ملكه بسبب امرأة ••• وقع فى الاسر ، ولقد كل  
شيء ••• وأوشك أن يفقد الشرف •••

وتحرك خسر المرأة فهالها ما أقدمت عليه !

أصبح زوجها الاول أسيرا لدى الاعداء ، بعد انهيار عرشه وهو  
عرشها وانهزم جيشه وهو جيشها ، وأصبح زوجها الثانى تمسا مقضوبا  
عليه ، بعد أن خان وطنه بسببها ، وشرع فى خيانة روما التى اقترفت  
خيانتة السابقة من أجلها •••

وبلادها ... قرطاجة وموريتانيا ، أصبحت تحت رحمة الغزاة  
الفاحين ، يتحكمون فيها ويأمرون وينهون ...

وأصبحت هي في حيرة وشقاء ، تتقاذفها المخاوف وتكتنفها الويلات ،  
بعد أن أصيبت في حبها ، وفي زواجها وفي وطنيتها !  
ودعت ماسينيسا وقالت له :

— لن أرضى بالظهور بين الأسرى أمام الرومانيين ... بل أوثر الموت  
الف مرة على العار مرة ...

وتحرك ضمير العاشق كما تحرك ضمير العاشقة ... فبكى  
ماسينيسا ... واستطردت الملكة تقول :

— انت الوحيد الذي أحبيته في هذا العالم . فاستمع الى مشيئتي  
الاخيرة : أريد أن أموت ... فأطلب منك أن تعطيني سما يودي بحياتي  
بدون ألم ... ثم أرغب اليك في شيء آخر ... وهو أن تنتقم لوطنك  
وتتأثر لي أنا من الأعداء ... لقد خنت قرطاجة بسبب حبي ... وحاربت  
أبناء قومك لكي تنزعني من بين أيديهم ... فانتفض الآن على الرومانيين  
كما انتفضت من قبل على القرطاجيين ... عليك أن تخونهم من أجل حبي  
وتنتزع هذه البلاد من أيديهم تكفيرا عن ذنوبك الماضية ... فإذا فعلت  
ذلك رخصت عنك روحى في عالم الخلد ! .. أفأفعل أنت ؟

فاحتضن الحبيب حبيبته ، وغمر جبينها بالقبلات ، وتمتم قائلا :

— اننى لفأفعل ما تريدن !

— أنقسم بألهتنا وآلهة أجدادنا ؟ .. أنقسم بأرواح أولئك الآباء  
والأجداد ؟ .. أمام بعل وملكارث وعشتروت وجميع آلهة فينيقيا العظام .  
آلهة البلد الذى جاء منه أجدادنا وآباؤنا ...

فبسط ماسينيسا يده وأقسم :

— أقسم أمام الآلهة ، بأرواح الآباء ورفات الأجساد أن  
ياسوفونسيه وأنتقم لقرطاجة وسيرتا ، وأحارب الرومانيين  
التي حاربت بها معهم ...

وعلا بأرادتها الاخيرة ، جاعها بالسم الذى طلبته

وسأله سوفونسيه :

— ما اسم هذا السم أيها الحبيب !

— اسمه « شوكران » ... تجرعه سقراط فمات بين أنصاره  
ومريديه ميتة هنيئة هادئة ...

فتناولته الملكة من يد الحبيب ...

وسرى السم في عروقها ، وخابت قواها شيئا فشيئا ... وجعلت  
تلفظ كلماتها الأخيرة مع أنفاسها ...

« وداعا أيتها السماء الزرقاء ، سماء بلادتي الجميلة ... وداعا أيها  
الوطن المحبوب ... أغادرك ذليمة مهانة ، ولكنني أمل لك النهوض من  
كبواتك ، وأرجو لك السعادة على يد حبيب أقسم لي أن يعيد إليك مجدك  
وحريتك ... وداعا أيها الأصدقاء ... لا تذكروا بسوء امرأة أحببتكم  
جميعاً ، وما فعلت ما فعلته إلا حباً بكم وبوطنكم ...

... سأعود اليكم يروحي ... وأطوف على أبوابكم ، متقلبة من  
القصر الفاهق إلى الكوخ الصغير ، مستفسرة عنكم ، طالبة لكم الهناء الذي  
لم أتمتع به في حياتي ! ... أرسلوا من بيتكم من يحمل خبر وفاتي إلى  
والدي الحزين المسكين ، ليخبره قرطاجة ، حيث يحاصره الأعداء وتساوره  
الشجون ... وقولوا له أن ابنته سوفونسيه ماتت في سبيل قرطاجة ،  
وأنها تطلب إليه أن يموت أيضاً في سبيلها إذا تعذرت عليه الحياة عزيزاً  
حراً مسكراً في وطن مسكراً حر عزيز ... قولوا له أن روعي ستعرف  
عليه في ظلام هذه الليالي ، وأنها ستفرح لفرحه وتشقى لشقائه ...  
قولوا له أنني كنت زوجة صالحة ، ومواطنة مخلصه وأنني حملت أحبه  
طاهراً نقياً ... قولوا لنساء قرطاجة : لقد ماتت سوفونسيه في سبيل  
الوطن ، فلي كل امرأة أن تفعل مثلها إذا لزم الأمر !

... جاءت اليمامة ... اليمامة المرسلة من لدن الآلهة ... جاءت  
لتحمل على جناحيها روح سوفونسيه ابنة أسدربعل ... قالوداع ! ...

وصعدت روح سوفونسيه في الفضاء محمولة على أجنحة اليمام ...

وكانت في الثالثة والعشرين من العمر . وكان ماسينيوس في  
الخامسة والعشرين ...

# القمران

---

ماشتا معا ...

وماتتا معا ...

ودفنتا معا ...



شرشل ، سيزاريا ، قيصرية ... ثلاثة أسماء لمسمى واحد . غير أن الاسم الاول هو الذى تعرف به الآن تلك المدينة الرومانية القديمة الواقعة على شاطئ « الجزائر » الشمالى .

اطلق عليها جوبا الثانى ملك مورتانيا اسم « يوليا سيزاريا » تخليداً لذكرى القائد الفاتح الرومانى يوليوس قيصر . ولا تزال آثار الهياكل والقصور والقلاع التى شيدها ذلك الملك فى « قيصرية » عاصمة ملكه باقية الى الآن فى المدينة التى يعرفها الجزائريون باسم « شرشل » .



كليوباترة

بموتهما انتهى حكم البطالسة فى مصر وبدأ فى القرب

مات جوبا الثانى ملك مورتانيا فى العام الثانى عشر بعد الميلاد ، وخلف وراه ذكرى طيبة واسما عطرا ومؤسسات عديدة ومؤلفات باللغة اليونانية قيمة مفيدة .

وكانت زوجته « كليوباترة سيلانه » أو الاميرة « قمر » قد سبقته الى العالم الآخر .

وفى اليوم الذى انتقلت فيه كليوباترة سيلانه الى دنيا الارواح ، رحلت ايضا عن هذه الارض وصيفتها المحبوبة «لونا» أو بعبارة أخرى «قمر» .

فمن هو جوبا الثانى ومن هما « القمران » اللذان غابا من الأنظار قبل ان يصبحا بديرين كاملين ؟ .

ماتت كليوباترة الكبيرة ملكة مصر منتحرة على أثر موت عشيقها ماركوس انطونيوس ، تاركة أبناء من آباء مختلفين بينهم ثلاثة هم ثمرة غرامها الجنونى الذى جر عليها وعلى عشيقها الرومانى المصائب والويلات

وهؤلاء الاطفال الثلاثة هم : الكسندر هليوس أو اسكندر الشمس ،  
وكليوباترة سيلانة أى كليوباترة القمر – وفيلادلف .

أفل نجم انطونيوس وفشل ذلك القائد العاشق فى ميدان السياسة  
والحرب ، وانهزم فى الميادين شر هزيمة . ولم يستطع تباتا أمام  
اوكتافىوس شقيق الزوجة التى طلقها انطونيوس وسقاها كأس الهوان  
حتى الشالة حيا بكليوباترة وغبة منه فى التمرغ بين ذراعي تلك الملكة  
القائدة الساحرة .

قطع انطونيوس حبل حياته بيده بعد أن يشن من النصر .

وجاء احد رجال كليوباترة المخلصين الى الملكة التمسة بحية سامة  
فى سلة ملوثة تينا . فماتت تلك اللمعة التى خللت فى التاريخ اسم  
الغية للمرة الثانية – منذ عهد حواء ! .

وفى للعام التاسع والعشرين قبل الميلاد عاد اوكتافىوس الى روما  
سائقا أمامه الاسرى والسبايا ، وبينهم أبناء كليوباترة من عشاقها  
الكثيرين . وفى مقدمتهم أبناء عدوه من الملكة الراحلة .

كان التويمان – هليوس وسيلانة – فى الماشرة من العمر ، وكان  
فيلادلف اصغر منهما سنا .

عهد اوكتافىوس الى اخته اوكتافيا زوجة انطونيوس المطلقة  
المهانة ، فى تربية أبناء زوجها من عشيقته تربية رومانية خالصة ،  
بحيث تستطيع روما فى مستقبل الايام أن تستخدمهم لقضاء مآربها  
وتحقيق اغراضها .

ولكن الكسندر هليوس وفيلادلف ماتا قبل ان يبلغا الرشد .  
وبقيت كليوباترة سيلانة على قيد الحياة .

وعندما وضعت روما تاج الامبراطورية على رأس اوكتافىوس  
وانادت به امبراطورا على الغرب والشرق باسم أوغسطس ، جعل الرجل  
يفكر فى انشاء دولة جديدة تخضع لتاج قيصر ويجلس على عرشها ملك  
وملكة ممن غذتهم روما يلبتها وعجتهم بيدها .

وكان يقيم فى روما فى ذلك الوقت الامير جوبا الافريقى ابن جوبا  
الأول ملك نوميديا . وكان ويوليوس قيصر قد هزم أباه واحتاج وطنه  
وضمه الى ممتلكات روما الشاسعة .



نشأ الأمير جوبا في روما نشأة لاتينية أنسته أصله ومصائب أبيه ،  
فأصبح أطوع لقيصر من بنائه • وعنما بلغ أشده أقامه أوغسطس ملكاً  
على « مورتانيا » الأفريقية باسم «جوبا الثاني» •  
وأطلق الملك الجديد على عاصمة ملكه اسم « سيزاريا » أو  
« قيصرية » •

وفكر الإمبراطور في إعطائه زوجة تكون مثله مشبعة بروح روما  
وثقافتها • فوقع اختياره على كليوباترة سيلانة ابنة الملكة المصرية  
المشهورة ، والحلقة الوحيدة الباقية من سلالة انطونيوس فأصبحت  
ابنة كليوباترة ملكة مثل أمها ! •

وقال قيصر لربيثته وهو يودعها يوم رحيلها عن روما الى عاصمة  
ملكها :

— لقد كان اسم « هليوس — الشمس » شؤماً على أخيك إسكندر  
فلعل اسم سيلانة — القمر » يجلب لك يا ابنتي الخير والسعادة والهناء ! •  
وانصرف جوبا الى ادارة شئون مملكته بلباقة ومقدرة • فازدهرت  
مورتانيا في عهده وعاش شعبه في رخاء وأطمئنان • وتمكن ذلك الملك  
الناشط من التوفيق بين ارضاء بلاده وارضاء روما في آن واحد •

أما كليوباترة سيلانة فانها لم تكن على وفاق مع ذلك الزوج الذي  
كان يهمل الملكة ولا يعطيها من وقته أكثر مما تسمح له بذلك شئون  
الملكمة • ولم تكن تلك الشئون لتسمح له بالاهتمام بزوجته والقيام  
بواجبه كله •

وكانت كليوباترة سيلانة تعد نفسها أشرف مجتدا من ذلك الزوج  
وألقى دما منه • أليست أمها كليوباترة ؟ أليس والدها ماركوس  
انطونيوس ؟ أليست اللماة التي تجرى في عروقها مزيجاً من الدم  
الروماني النبيل والدم اليوناني النبيل أيضاً ؟ فمن يكون جوبا الأفريقي  
المورتاني بالنسبة اليها ؟ •

وامرأة هذه عقليتها وهذا اعتقادها في نفسها لا يمكن أن تجعل  
زوجها سعيداً في حياته وتضمن له الهناء • وإذا أضفنا الى ذلك أن  
الزوج نفسه كان في شغل شاغل عن زوجته ، منصرفاً الى معالجة شئون  
مملكته ورعاية الادب والعلم وتشييد الهياكل ، والقصور وتأسيس  
المعاهد وخدمة الفنون ، أدركنا أن كلا الزوجين المكيين كان يعيش غربياً

عن الآخر ، معتمدا على نفسه فقط ، غير باحث عند رفيق حياته على  
ممونة أو عطف أو حب ! •

وكانت الملكة سيلانة تتمتع بحقوق خاصة بها ، أقرتها روما  
وأرغمت الملك جوبا الثانى على اقرارها أيضا ، بحجة أن سيلانة رومانية  
أصلية فى حين أن زوجها غريب عن روما تبناه الامبراطور فاكتسب  
القومية الرومانية اكتسابا • وتلك الحقوق التى كانت كليوباترة سيلانة  
تتمتع بها كانت تجعلها قادرة على طبع صورتها على النقود الموريتانية وعلى  
جدران الهياكل والقصور ، واصدار أمرها الى رجال الحرس والجيش ،  
ومناهضة سلطة الملك اذا خطر ببالها أن تفعل •

وكثيرا ماكان يخطر ذلك ببال كليوباترة سيلانة !

\*\*\*

- تعالى يالونا تعالى فاننى اشعر الليلة بضيق فى صدرى ويخيل  
الى اننى مسرعة بخطى واسعة نحو القبر !

القت « لونا » بنفسها على قدمى سيدتها وقالت بصوت حنون ينم  
على حب واخلاص :

- بددى افكارك السوداء يامولاتى فسوف تعيشين طويلا • انك  
جميلة قوية والمستقبل يضحك لك ويناديك !

- كلا يا لونا ! • لقد شامت الآلهة أن تغرب « شمس » اخي  
هليوس قبل الأوان ، وسوف يغيب «قمر» سيلانة قبل الأوان أيضا !

قالت الملكة الشاببة هذا وبكت ••

وتساقطت دموعها على يدى وصيفتها «لونا» فبكت الجارية لبكاء  
سيدتها •

وامتزجت دموع «القمرين» وسيلانه ولونا فى سكون ذلك الليل ،  
فى قصر جوبا الثانى المشرف على البحر بمدينة قيصرية •

- لونا •• لقد اطلقوا عليك هذا الاسم لانك ولدت فى الليلة التى  
ولدت فيها أنا ! سمونى بلغة أمى اليونانية « سيلانة » وسموك بلغة  
عشيق امى انطونيوس الرومانى «لونا» والاسمان لمسمى واحد • هو  
القمر الذى يضىء الليالى السوداء • ولكن القمر اليونانى سوف يغيب  
قبل أن يصير بلدا • فلن يتحقق دعاء أوغسطس قيصر ! وأرجو ياأختى  
أن يبقى القمر الرومانى متلألئا فى الفضاء وأن تعيشى طويلا يا لونا !

فقبلت لونا قدمي مولاتها وقالت والزفرات تخنقها :

— لن أنسى يا سيدتي أن أبى المصرى هو ذلك الرجل الذى خضع لارادة أمك الملكة العظيمة ، وحمل إليها فى قصرها بالإسكندرية الحبة السامة فى سلة التين • لقد مات أبى أيتها الملكة بعد أن أفضى الى يرغبتة الأخيرة : وهى أن الحق بك حيث تذهبين ، وإن آكون لك خادمة مطيعة كما كان بائع التين خادما مطيعا لأمك ، وإن أرحل عن هذا العالم فى اليوم الذى نرحل فيه عنه سيلانه ويفيب قمرها عن الانظار !

— ائذ سوف نلحق بأبى وأخوى فى العالم الآخر متعانقين ، فيلتقى القصران هناك بكليوباترة ربة السحر والجمال وابنها هليوس الشمس المشرقة !

وفى اليوم التالى ، ارتفعت فى قصر الملك أصوات النساء ومزق عويلهن الفضاء وحمل الرسل الى الملك جوبا الثانى خبر وفاة زوجته كليوباترة سيلانة •

ترك الملك مجلسه • وأسرع الى حجرة الملكة ، فاذا به أمام جثة هامة •

بل أمام جنتين هامدتين !

جثة زوجته وقد خرجت روحها من بين شففتيها ، تاوكة عليهما ابتسامة حلوة •

وجثة الوصيعة لونا وقد بات وجهها حالك السواد من أثر السم الزعاف الذى تجربته •

وقف جوبا الثانى أمام الجثتين مطرق الرأس صامتا • ثم التفت الى نساء القصر ورجال الحاشية وقال :

— لتدفن الملكة فى حديقة القصر ، وليعلن الحداد عليها اربعين يوما •

ثم تقدم من جثة زوجته وتناول يدها بيده وقال :

— لم ننق لذة الحياة مما أيتها الحبيبة ولم ننعم بالسعادة والهناء فى هذا العالم ، فلتسهر عليك الآلهة فى الآخرة ، وأعدك الآن بأننى سأتمهد بعنايتى ولدنا « بطليموس » وابنتنا « دروزيلا » راجيا أن يكونا فى هذه الحياة أو فى منا حظا وسعادة وهناء !

وهم الملك بالخروج من قاعة الموت فارتفع صوت سائلا :

ـ ولونا ؟ لونا الوصيصة الامينة ، اين ندفنها ؟

فاجاب الملك :

ـ لتدفن بجوار سيدتها • فقد كان القمر للقمر وثيا !

وفى حديقة القصر رقد القمران : كليوباترة سيلانة ، ابنة  
كليوباترة ملكة مصر من عسيها الرومانى ماركوس انطونيوس وزوجة  
الملك جوبا الثانى • والوصيصة «لونا» ابنة البائع المصرى الذى حمل الى  
كليوباترة العظيمة الحية السامة فى سلة التين !



## قبر الرومية

ما أكثر الأماكن الأثرية التي  
تعمل أسماء لا تنطبق على  
الاسم : ومن هذه الأماكن  
« قبر الرومية » في الجزائر .



لم يتردد « بطليموس » ملك موريثانيا ، لحظة واحدة في السماح بالثول بين يديه ، للمرأة المصرية التي وقفت بباب القصر في صباح ذلك اليوم ، قائلة انها قادمة من روما لمقابلة الملك والانضاء اليه بأمر خاص به دون سواه .

ان لصر في نفس بطليموس مكانة خاصة . فهي مسقط رأس أمه ، ومقر عرش تبواه أجداده نحو ثلاثة قرون ، حتى جاء الرومان فأزالوه من الوجود . . . .

دخلت المرأة . فإذا هي غادة بارعة الجمال ، في نهاية العقد الثالث من العمر ترتدي ثوبا هو مزيج من الطرازين المصرى والاغريقى ، كما كان شائعا في عهد البطالسة في الاسكندرية . . . .

رحب بها الملك ، وقال لها انها تحل في ضيافته منذ تلك الساعة وسألها ما الذى حصلها على هجر وطنها ، ولماذا جاءت الى عاصمته « يوليا سيزاريا » وهل هي وحدها ، أم في صحبة رفاق من بنى قومها ؟

وبصوت عذب ، وعبارات تتخللها العبرات ، قصت المرأة قصتها على بطليموس . . . .

انها وحدها لا يصحبها أحد في رحلتها . . . . بل انها وحيدة في الحياة لا تمت الى أحد بنسب . . . . مات أبوها المصرى وهي في سن الرضاعة . فعنيت بتربيتها أمها « انطونيا » ابنة « سيسترا » الوصيقة في بلاط الملكة كليوباترة ، وهي أيضا تحمل هذا الاسم ، اسم جدتها « سيسترا » . ولما شعرت الأم بأن ساعتها الاخيرة قد دنت ، أرادت أن تعلمن على مستقبل الصبية ، فاختارت لها من بين أصدقاء الأسرة زوجا صالحا ، وسلمتها ما كانت تدخره من مال ، وتملكه من تحف وحلى . ثم تناولت كيسا مصنوعا من جلد الغزال ، وأخذت منه خمارا ناصع البياض ، ووضعت به بين يدي ابنتها قائلة لها : « ان هذا الخمار يا ابنتى من ممتلكات الملكة كليوباترة التى ماتت كما تعلمين من لدغة حية سامة لما بلغها خبر انتحار الرومانى ماركوس انطونيوس . وهو هدية منه الى كليوباترة .

صنع من أدق خيوط القطن المصري • وقد نحتت كليوباترة بيدها غزالة  
بيضاء كانت اليفة ، تروح وتجي في العصر ، وصنعت من جلدها هذا  
الكيس لتخفظ فيه خمار الجيبب العزيز... ولما تبعثت محتويات القصر  
الملكي ، بعد وفاة كليوباترة وأنطونيوس ، ودخول الرومان إلى البلاد  
فاتحين منتصرين ، وهرب الخدم والوصيفات ، عثرت أمي سيسترا -  
جدتك يا ابنتي - على الكيس الثمين ملفى تحت النافذة التي كانت الملكة  
تجلس أمامها في صباح كل يوم ... فأخذته ، واحتفظت به ... وآل  
إلى بعد موتها ... واننى أخضه الآن وديعة بين يديك ، فحافظى عليه ،  
وعلى الخمار الذى يضمه فى طياته ... وإذا قدر لك أن تلتقى ، فى  
مستقبل الأيام ، بأحد من أبناء الملكة أو أحفادها ، فسلميه هذه الأمانة ،  
لئلا تكن المكافأة أن يذكرني ويذكر أمي سيسترا بالخير ...

وماتت الأم مرتاحة البال ... ولكن الابنة لم تنعم بالطمأنينة  
والسعادة من بعدها ... فقد مات زوجها أيضا ، بعد أمها بسنتين ،  
وبقيت وحيدة لا سند لها ولا معين ... فاعتزمت الرحيل عن مصر ،  
والتحقت بخدمة قائد روماني كوصيفة لزوجته ، وأبحرت معها من  
الاسكندرية إلى روما ... ومن هناك قررت المجيء إلى « يوليا سيزاريا »  
عاصمة موريتانيا مدفوعة بالرغبة فى لقاء الملك الجالس على عرشها ،  
« بطليموس » ، ابن الملك « جوبا » من زوجته « كليوباترة سيلانة » ابنة  
كليوباترة ملكة مصر ، من ماركوس أنطونيوس الروماني .

أصغى بطليموس إلى رواية المرأة المصرية صامتا ، تتماوج على وجهه  
الانفعالات النفسية التى اختلج بها صدره لسماع تلك التفاصيل الثيرة ،  
ولما سكنت سيسترا ، سألها بلهفة :

- والخمار يا سيسترا ؟

وكان المرأة كانت تنتظر منه هذا السؤال • فقد مدت يدها إلى  
صدرها ، وانزعجت الكيس الأبيض من طيات ثوبها ، وأخرجت منه الخمار  
الناعم ونشرته أمام أنظار الملك قائلة :

- الأمانة بين يديك يا حفيد كليوباترة !

فنهض بطليموس من مكانه ، وضم أصابعه على ذلك الأثر الصائلي  
النفيس ، وغمره بالقبيلات والدموع ، ثم التفت إلى سيسترا قائلا :

- سأجعل من هذا الخمار الذى كان أزارا لجدتي ، كفنا لأمي !





يوليوس قيصر

سميت باسمه مدينة يوليا سيزاريا  
بالجزائر - وهي اليوم شرشل

في سنة ٣٠ قبل الميلاد ، بعد زوال عرش البطالسة في مصر ،  
بموت آخر ملكاتهم ، نقل الرومان الى عاصمتهم أبناء كليوباترة من أزواجها  
العديدين . . . .

وفي روما ، نشأت « كليوباترة سيلانة » أي كليوباترة « القمر »  
ابنة ملكة مصر من ماركوس انطونيوس ، وترعرعت تحت أنظار الرومان ،  
وفي رعاية « أوكتافيا » الزوجة التي هجرها انطونيوس من أجل عشوه  
اللدود « أوكتافيوس » الذي خلا له الجو في روما بعد أن تخلص من  
مزاحميه ، فثبوا العرش باسم « الامبراطور أوغسطس قيصر » . وقضى  
على النظام الجمهوري في روما ، عاصمة الدنيا ومبديتها في ذلك الوقت .

واراد قيصر أن تكون كليوباترة سيلانة زوجة الملك موريثانيا «جوبا»  
الثاني « التابع للرومان ، فكان له ما أراد . . . .

وفي مدينة « يول » المستعمرة الفينيقية القديمة ، التي جعلها جوبا

عاصمة ملكه ، وسماها ، « يوليا سيزاريا » نسبة الى القائد الروماني الأشهر يوليوس قيصر ، شيد العريس الافريقي لمرسه الحسناء قصرا فى غرب البحر المتوسط ، حاول أن يجعله شبيها بالقصر الذى رأت فيه النور ، وعاشت فيه أمها على شاطئه الاسكندرية ، فى شرق ذلك البحر .

لكن الحياة الزوجية لم تكن مصحوبة بالسعادة والهناء ، بالنسبة الى الزوجين ، بل كان الخلاف بينهما متواصلا دائما ، على جميع الشئون الخاصة والعامة . غير انهما كانا يتظاهران بأنهما على وفاق تام ، تجنبنا لتدخل الرومان بينهما ، وما قد يحره ذلك عليهما من متاعب ...

كانت سيلانة دائمة التفكير فى الموت ، تعتقد أن أيامها معدودة ، وأحيانا تتمنى من أعماق قلبها ، أن تنصرم تلك الايام وتريحها من حياة لم تكن لتحقيق لها ما كانت تصبو اليه من أمنيات وآمال .

طلبت ذات يوم من زوجها الملك أن يعد لأسرته ضريبا لائقا بها ، وأن يكون الضريح شبيها بالاهرام التى شيدها الفراعنة فى أرض مصر ، لتكون لهم الثرى الاخير . فاجابها جوبا الثانى الى رغبتها ، وأمر بأن يبنى هرم فى طاهر العاصمة ، وبدأ المهندسون والعمال يتفقدون الامر الملكى ، وكانت الملكة نفسها تشرف على سير العمل ...

وماتت سيلانة قبل أن يتم تشييد الضريح . دفنت فى حديقة القصر الملكى ، ودفنت معها وصيفة لحقت بها من مصر ، وكانت رفيقة صباها ، وتحمل اسما لاتينيا يشبه اسمها الاغريقى « لونا » ومعناها « القمر » .

ولما لحق بها زوجها الملك ، لم يكن الضريح قد أعد بعد ، فدفن جوبا بجوار زوجته سيلانة والوصيفة لونا . وكان الزوج قد بلغ السبعين من العمر . أما الزوجة فقد ماتت وهى دون الخمسين .

وخلف « بطليموس » أباه وأمه على عرش موريثانيا . وكان ذلك فى سنة ١٨ للميلاد وفى عهد تiberius قيصر ، ثانى أباطرة الرومان .

من رغبات كليوباترة سيلانة التى استجاب لها جوبا الثانى ، تسمية ابنها البكر « بطليموس » وهو الاسم الذى حمله جميع الملوك من أسرة « لاجوس » المقدونية فى مصر ، من سنة ٣٢٣ الى سنة ٣٠ قبل الميلاد . وهكذا بعد أن أفل نجم البطالسة فى المشرق ، ومر نحو نصف قرن على وفاة كليوباترة الكبيرة ، عاد النجم فلمح من جديد فى المغرب ، فى عهد سيلانة ملكة موريثانيا ، ثم فى عهد ابنها وخليفتها بطليموس .

أوصاه أبوه ، قبيل موته ، بأن يواصل السبل في بناء الضريح ،  
لكي يدفنه فيه مع الملكة التي سبقته الى العالم الآخر . وعمل الابن بوصية  
الأب ، فأنجز البناء الذي جاء فخما رائع المنظر ، يثير الإعجاب بضخامته ،  
ويخلب الأبواب بأعمدته العديدة ونقوشه البديعة . وزاده جمالا على جمال  
غرس الاشجار على طول الطريق المؤدية اليه ، وكثرة الرياحين والازهار  
من حوله ، على سفح الهضبة التي اعتلى الضريح قمتها .

وما ان انقضت سنتان على وفاة الملك جوبا الثاني ، حتى كان الضريح  
معدا للغرض الذي شيده من أجله . فقرر بطليموس أن ينقل اليه رفات  
أبيه وأمه ، في مشهد يشترك فيه الشعب الموريتاني ، الذي أحبه الملك  
الراحل وأحبته الملكة ، فقابل جميعهما بالولاء والوفاء .

في ذلك الوقت ، وبينما كان الملك بطليموس يستعد لنقل الرفات  
الى المقر الأخير ، وصلت الى « يوليا سيزاريا » المرأة المصرية ، حاملة الى  
حفيد كليوباترة ، خمار جدته الابيض ، في كيس أبيض مثله .

وتلك المصادفة العجيبة جعلت بطليموس الملك يقول لسيسترا ،  
وهو يقرر الأثر العائلي النفيس بالقبلات والدموع :

— سأجعل من هذا الخمار الذي كان ازارا لجدي ، كفنا لأمي !

لم تشهد يوليا سيزاريا هوكبا كذلك الذي خرج من باب سورها  
الكبير ، في سنة ٢٠ بعد الميلاد ، وانساب في السهل الممتد حول العاصمة ،  
خلف نعشين وضعا على زحافتين تجرهما الجياد الملهمة ، في طريق تكتنفه  
الاشجار من الجانبين ، متجها نحو الشرق ، حيث يرتفع « هرم جوبا »  
المعد ليكون مأوى للنعشين ، اللذين يضمن جثمانى الملك والملكة .

مشى بطليموس ، الابن البار ، في طليعة الموكب ، ومن حوله أفراد  
أسرته ورجال حاشيته ، وتبعه الكهنة يرتلون الاناشيد ، والـمـذارى  
يلوحن بالاغصان الخضراء ، وأنفاج من الضاربين على القيثارة والنافخين  
في الابواق والقارعين على الطبول ، وكبار القواد وعظماء المملكة ، ثم  
الشعب الخاشع رجلا ونساء وأطفالا ...

وكان نعش الملكة ملفوفا بالخمار الابيض ، الذي جاءت به سيسترا  
المصرية من الاسكندرية ، بمثابة كفن يلازمه في ظلمة القبر . ووضع  
النعثمان في المكان المد لهما بين جدران الهرم .

وفي اليوم التالي ، أمر بطليموس بأن ينقل أيضا رفات الوصيعة

» لونا « من حديقة القصر ، ويدفن أيضا في قبر أعد له بجوار الضريح الملكي ...

أقامت سيسترا ابنة انطونيا وحفيدة وصيفة كليوباترة في قصر الملك بطليموس معززة مكرومة . وكانت كثيرة التردد على الضريح، حيث تجلس في عزلة عن الناس ، وتطلق لحيالها العنان ، وتذكر الماضي البعيد والقريب ، وتقارن بينه وبين حاضرها المعجم بالراحة والاطمئنان .

أراد الملك أن يختار لها زوجا من بين فرسان حرمه ، فرجته ألا يفعل ، قائلة انبعاثا بالقرب منه ، وما تجده في القصر من عطف ورعاية، وما تشاهده من حب متبادل بين الملك وشعبه ، كل ذلك يفتنيها عن السعي إلى ما عداها من أنواع السعادة ...

عشرون سنة قضتها سيسترا في بلاط الملك بطليموس ، وأخذت في خلالها نصيبها من السراء والضراء ، وحضرت الأفراح والاتراح ، ولم يحدث قط ما يترك صفو علاقاتها بصاحب العرش وأفراد أسرته .

سافرت إلى روما مع بطليموس وعادت معه إلى يوليا سيزاريا غير مرة ...

وفي إحدى تلك الرحلات - وكانت الأخيرة - هبت العاصفة التي أودت بحياة بطليموس وأطاحت بعرشه .

ففي سنة ٣٧ للميلاد ، جلس على عرش الإمبراطورية الرومانية ، ثالث قيادتها ، كاليكولا السفاح المجنون . فناصره ملك مورتانيا «العداء» بدون سبب مبرر . وحاول بطليموس عبثا أن يتفادى مغبة ذلك «العداء» ، ولكن مساعيه ومساعى أصدقائه من عظماء الإمبراطورية بامت بالفشل . وفي سنة ٤٠ للميلاد ، أمر كاليكولا بقتله في مادبة صاخبة . ودفنت جثته في مكان مجهول .

وعادت سيسترا مع رفاق الملك المقتول إلى عاصمة مورتانيا ، حيث ساد الاضطراب وانتشر الفرع ، وشعرت المرأة بأن حياتها قد انتهت بانتهاء حياة الملك الذي غمرها بسطفه وأحاطها بحمايته .

وفعل الرومان في مورتانيا ما فعلوه من قبل في مصر ، يوم جعلوا من البلاد أقلية من أقاليم إمبراطوريتهم الشاسعة . وهربت الملكة أورانيا زوجة بطليموس إلى الجبال واختفت .

وفي ذات يوم ، عثر الزائرون عند هرم جوبا ، على سيسترا المصرية

جثة هامدة • فأشفقوا عليها بعد موتها ، وحفروا حفرة بجوار القبر ،  
وواروا فيها جثة المسكينة •

وظلت رياح الخوف تعصف بشعب موريتانيا أكثر من سنة ، ولم  
تهب الا بوفاة القيصر المجنون كاليكولا في سنة ٤١ لليلاد •

وتعاقبت الأجيال ... وتعاقب معها الغزاة والغاصون • جاء بعضهم  
من الخارج ، وأقبل بعضهم من الصحراء ، وفقدت يوليا سيزاريا مع  
الزمن مكانتها ، وتضاءلت أهميتها ، وتداعت قصورها وهياكلها ،  
وتساقطت أعمدتها ، وهجرها فريق من سكانها الى حيث يتوافر لهم  
الأمان والاطمئنان •

وفي القرن الهجري الاول ، والقرن الميلادي السابع ، طوى العرب  
تحت جناح دولتهم الأيسر الساحل الأفريقي من الشرق الى الغرب • ولما  
حلوا في يوليا سيزاريا ، سموها « قيصرية » ثم تغير الاسم الى « شرشل »  
حتى استقر في النهاية على ما هو في أيامنا هذه : « شرشل » •

وأما موريتانيا ، فقد اختفى اسمها من الأذهان ، وأصبحت مع الوقت  
أقليما من أقاليم « الجزائر » العربية •

فاذا خرجت من بلدة شرشل ، واتجهت الى الشرق ، أو خرجت من  
مدينة الجزائر واتجهت الى الغرب ، ثم جنحت قليلا الى الجنوب ، وسرت  
في سهل «متيدجة» فانك تصل في أحد أطرافه الى هضبة صغيرة يبلغ  
ارتفاعها نحو مائتين وستين مترا ، وترى فوق تلك الهضبة ، بناء قديما  
متهدما ، تختلط حجراته بالأتربة ، ولا يزيد ارتفاعه على ثلاثين مترا ،  
وقطر دائرته على ثلاثة وستين مترا ، وحول قاعدته يمتد صف من الأعمدة  
يبلغ عددها الستين ، وله أربعة أبواب يواجه كل منها جهة من الجهات  
الأربع ، وفي داخله دهاليز خالية خاوية •

والبناء يحاكي في شكله الأهرام المصرية •

ذلك هو هرم جوبا الثاني ، وضريح ملوك موريتانيا الذي حوى في  
جوفه جثمان الملك وزوجته ابنة كليوباترة وماركوس انطونيوس ، والذي  
كانت الأشجار والرياحين والأزهار تغطي سفوح التل الذي شيد الهرم  
على قمته •

ولو سألت : « ما هذا البناء ؟ » لأجيبك الذين تسألهم : « هذا قبر  
الرومية » •

وكلمة « الرومية » هنا معناها « المسيحية » فمنذ أن اشتبك العرب المسلمون في حروب طاحنة مع دولة الرومان الشرقية ، و « الروم » أصحاب بيزنطة ، أصبحت كلمة « رومي » في عرفهم مرادفة لكلمتي « مسيحي » و « نصراني » وظلت تؤدي هذا المعنى مدة طويلة من الزمان .  
وقد راجت في الجزائر ، وفي وقت لا يمكن تحديده ، اسطورتان اثنتان ، حول هرم جوبا :

الاولى تقول : بأن ذلك البناء كان مثنوى لأميرة مسيحية دفنت فيه مع كنوزها الكثيرة ، ولهذا عرف البناء باسم « قبر الرومية » .  
والثانية تقول : بأن ساحرا من الغرب تمكن من فتح باب الضريح والاستيلاء على كنوز الرومية .

وليست الاسطورتان غير رواية للحقيقة مشوهة ، تناقلتها الالسة على كر الاجيال ، فحورتها جيلا بعد جيل ...

فبالبناء ضريح الملكة وملك وثنين سطا عليه اللصوص فنهبوا الكنوز التي دفنها بطليموس مع رفات أبيه وأمه، ولم يتركوا حتى للتعشين وللعظام أثرا ...

وحط الدهر على البناء وعبثت به أعاصير الطبيعة ، فلم يبق اليوم من رونقه السابق ، وروعه الماضية ، غير تلك الكومة من الحجارة والأتربة والاعمدة المتداعية ، التي يسميها الناس « قبر الرومية » وهو اسم لا ينطبق على المسمى ...

# ابن القفر

ضحك له الحقل ثم عيس في  
وجهه ، فارتفع ثم هوى  
وراح ضحية القدر والطمع !







كانت ليلة مظلمة ممطرة ، وأمواج البحر المتلاطمة الهائجة يسمح لها من بعيد هدير مزعج متواصل ، والبرق يشق سواد الليل بلمعانه ، تتبعه الصواعق والرياح بهزيمها المرعب ، والملكة « أورانيا » متربعة على كومة من الوسائد ، أمام النافذة التي لا ترى من خلالها شيئا ، وتلقى بين لحظة وأخرى نظرة ملؤها الحب والحنان على زوجها الملك ، الحائر فى القاعة الفسيحة ، كاسد فى قفص ، يروح ويحيى مهموم البال شمسارد الفكر .

ومزق الرجل الصمت فجأة ، سائلا : « أورانيا .. أتعتقدين حقا أن الامبراطور « كاليكولا » يضمركى شرا ، وأن دعوته تنطوى على مكيدة أو خيانة ؟ »

كان صوت الملك متهدجا ونبراته تنم عن اضطراب نفسه ، ولكن الملكة أجابته بتفريد شجى كفناه البلبل :

— بطليموس ، حبيبى .. ما أردت بما أفضيت به اليك من رأى غير تحذيرك من التفاؤل والتواكل ، لا إثارة المخاوف فى نفسك ، وحملك على الوقوف موقفا لا يليق بأصحاب التيجان .. ومهما يكن من أمر ، فلا بد لك من تلبية دعوة الامبراطور ، والذهاب الى روما ، نزولا على رغبته ، لأن ملكنا تابع ملكه ، وسلطاننا مستمد من سلطانه .. ولكن — هناك — كن يقظا .. ولا تثق بأحد من أولئك الرومانيين المخاتلين ، واحترس من كل ما يجرى حواليك ، ولا تنتقل من مكان الى آخر بدون أعوانك الذين سيراقتونك فى هذه الرحلة الخطرة .

— أنت على حق فى كل ما ذهبت اليه ..

— إنك لا تجهل يا بطليموس ان « بورفورا » الحسناء التى أهديتها للامبراطور « كاليكولا » أجابة لطلبه ، ليست فى الواقع غير جاسوسة لنا فى بلاط قصر ، وهى توافينى بلا انقطاع بكل ما يحدث فيه ، وما يقال ، وهى أيضا التى أرسلت تحذرنى من مظاهر الصداقة والمحبة التى يبديها لنا « كاليكولا » فى هذه الايام ، فان هذا الامبراطور السفاح المجنون فى حاجة الى المال ، كماداته ، وفى سبيل الحصول عليه ، لن يتردد فى الاقدام

على أى عمل من أعمال العنف : التزوير ، السرقة ، الاكراه ، القتل ..  
فلنحترس !

... صدقت ، لنحترس !

بعد انهيار حكم البطالسة فى مصر ، بانتحار آخر ملكاتهم فيها ،  
كليوباترة عشيقة القائد الرومانى أنطونيوس ، نقل أبناء الملكة وأفراد  
أسرتها الى روما ، حيث تولى أمرهم الامبراطور أوغسطس قيصر وخلفاؤه  
.. وكان لكليوباترة ابنة أنطونيوس عرفت باسم «كليوباترة سيلانة»  
ومصانها «القرم» باليونانية ، زفت الى «جربا الثانى» ، ملك «موريتانيا»  
على الساحل الاfricanى ، فلما توفى فى سنة ١٨ بعد الميلاد ، خلفه على  
العرش ملكا على «موريتانيا» التى ضمت «نوميديا» أيضا ، ابنه  
«بطليموس» حفيد كليوباترة وأنطونيوس من ابنتها «سيلانة» .

وقد حافظ الملك الجديد على صداقة الرومانيين الذين أقروه فى  
ملكه ، وظل فى جميع أعماله ولىا لهم ، فساعدهم على اخمد ثورة الافريقين  
بقيادة «تكفاريناس» فى عهد الامبراطور «تيطوس» ، ولكنه بدأ  
يوجس منهم خيفة منذ أن اعتلى عرش القيصرية رجل قاسى القلب ، شاذ  
الشمور ، مختل العقل ، هو «كاليكولا» الفاسق الفاجر ، الذى حكم روما  
فى سنة ٢٧ للميلاد وهو فى الخامسة والعشرين ، والذى كان فى حاجة  
دائمة الى المال ، يأخذه من الأفراد والجماعات والشعوب بلا وازع ولا  
حساب ، ليملا به خزائن الدولة ، ثم يفترق منه ابضا ملء قبضتيه لينفقه  
فى أعماله الجنونية بلا وازع ولا حساب !

وقد بلغ الامبراطور السفاح ان فى حوزة ملك «موريتانيا» أموالا  
طائلة ، واكداسا من الذهب والفضة ، واكواما من الحلى والجواهر ، وهى  
ما تبقى من كنوز البطالسة التى نقلت من الاسكندرية يوم رحلت عنها  
الاسرة المالكة وكان هذا حقا ٠٠٠ لان «بطليموس» كان فى الواقع أغنى  
ملوك عصره ، بل أغنى من قيصر نفسه ، المترعب على عرش روما ، والذى  
لم يكن بطليموس غير واحد من عشرات الملوك التابعين له ..

وكانت الملكة «أورانيا» تعنى عناية خاصة بهيانة ثروة زوجها  
الهايلة ، احتياطا منها للمستقبل ، وخوفا من أن تمتد يد القدر بسوء الى  
عرش «موريتانيا» وأصحابه ، كما امتدت من قبل الى عرش مصر وأصحابه ،  
ولهذا أنشأت مخابىء حصينة بمدينة تاماكا ، أخفت فيها ما تملك من  
جواهر وحلى وفضة وذهب من كنوز البطالسة الباقية ، وجعلت تأخذ منها  
ما تقضى الضرورة بأخذه ، وتكتم ما استطاعت سر المخابىء عن أسماع



شارع في تلوان القديمة  
وتلوان أو تلوان في منطقة الريف  
كانت من معازل ملوك موريثانيا باسم « تاما »

الناس وأبصارهم .. فلما وصل النبأ إلى « كاليكولا » ، القيصر المجنون  
التمطش إلى المال تمطشه إلى السماء ، جعل يرسم الخطط وينصب الشراك  
للاستيلاء عليها .

وكان من بين الاساليب التي لجأ إليها لاستيفاء معلوماته عن كنوز  
البطالسة ، جلب عشرات من القواد ورجال الحاشية والخدم والعبيد من

موريتانيا الى روما للاحاقهم بخدمته ، واغداق نعمه عليهم ليستطلع منهم أخبار مولاهم بطليموس ومولاتهم أورانيا ٠٠ وقيل له ان للملكة وصيفة مصرية الأصل ، هي موضع ثقة الملكة ومستودع أسرارها ، فأرسل الامبراطور يطلب من بطليموس اهدائه اياها لتكون في خدمة زوجته وأخواته ، ولم يجرؤ الملك على رفض هذا الطلب، فافتقرت الملكة «أورانيا» عن وصيفتها على مضض ، ولكن بعد أن تواطأت معها على أن تكون في قصر الامبراطور ، عينا لها وأذنا ، وأن تنقل اليها كل ما يصل الى علمها من أعمال قيصر وأقواله ونواياه .

وذابت الوصيفة « بورفورا » الى عاصمة الامبراطورية العظيمة ، ولكنها بدل أن تكون جاسوسة لقيصر على مولاتها ومولاها ، أصبحت جاسوسة لهما على قيصر وزوجته وأخواته ٠٠ وهي التي أرسلت تخبر « أورانيا » بطمح الامبراطور في ثروة البطالسة ، ورغبته في الاستيلاء عليها ، وتحذرها مما تخفيه دعوة « كاليكولا » لزوجها بطليموس للذهاب الى روما ، من أهداف قد تكون وخيمة العاقبة على الضيف في كنف مضيفه ٠٠ وهذا ما جعل الملكة أورانيا تمن في التفكير ، وتباحث زوجها في أمر تلك الدعوة ، وتلح عليه بأن يصطحب معه جماعة من أعوانه المخلصين ، ويكون على حذر من كل حركة وسكنة تبدو من الامبراطور المجرم المالحين ٠٠

ورأى الزوج والزوجة أن لا سبيل الى التهرب ، لان في هذا ما قد ينير غضب قيصر وشكوكه ، فيعمد الى القوة والعنف ، ولا طاقة لموريتانيا على الوقوف في وجه روما ومتناصبها العداء . فسافر الملك بطليموس مع حاشية من ابعده رجاله تفانيا في الاخلاص له ، وحل ضيفا على الامبراطور كاليكولا ، في قصر أعد خصيصا لحفيده كليوباترة ورفاقه الموريتانيين ، حلفاء روما الكرام الأعزاء !

وأمر قيصر بأن تعد العدة لرحلة في بلاد « غالبا » ، وإن يكون بطليموس ورفاقه في معيته ، وكانت الرحلة سلسلة متواصلة من الاعياد والمهرجانات والحفلات والمفامرات ، ثبت فيها جميعها للملك الموريتاني أن الامبراطور الروماني مجنون لا شك في جنونه ، سفاح لا يعرف قلبه الشفقة ، ولا يتردد في ذبح ضحايا بيده . ويتمنى « لو كان لشعب روما كله رأس واحد ليقطعه بضربة واحدة ! » .

واستقر المقام في النهاية للامبراطور ورفاقه في مدينة « ليون » حيث أعد قصر الحاكم المأدبة من تلك المآدب التي كان « كاليكولا » يتفتن

فى اقامتها ، ويأمر بأن توضع فيها على الموائد أمام الضيوف ، الخرفان  
والثيران والخنازير البرية والجمال الجلوبة من الشرق ، كاملة كما هى  
وتقدم فيها الخمر فى قرب من جلد الحير ، وبعد أن يهوى المدعوون الى  
مرتبة البهائم ، يرفع قيصر عصاه الذهبية التى لم تكن تفارقه ، ويتبرأ الى  
واحد بعد آخر من الخدم والعبيد ، وأحياناً الى الجوارى من النساء ، أو  
الى أحد المدعوين اذا تراءى له ذلك ، فيشب الحراس على من تصيبه تلك  
الترعة الهوجاء ، ويفصلون رأسه عن جسده ، ويلقون بهذا الرأس على  
الموائد وسط الضحك والتصفيق والهتافات لقيصر بطول العمر !

وهذا ما حدث فى تلك الليلة ، فى قصر الحاكم الرومانى بمدينة  
ليون : فقد أكل الامبراطور ومنعوه وشربوا وسكروا ، وبدأ الحراس  
يلبون اشارة مولاهم ، فيذبحون ويطوفون بالروس الحمراء يضعونها  
فى الاطباق بين أكوام اللحوم والفاكهة ...

وفى غمرة تلك المأدبة الجهنمية ، شعر الملك بطليموس بيد تمسك  
بكتفه ، وبأنفاس حارة تداعب وجهه ، وسمع صوتاً عذياً يهمس فى أذنه  
قائلاً : « مولاي لا تلتفت الى وأنا أستبدل الاطباق والاقادح بغيرها ...  
أنا بورغورا ... لماذا جئت الى هنا ؟ اهرب ... قبل فوات الوقت ...  
فى وسمك أن تنتحل أى عذر للخروج من هذه القاعة ... وعلى الباب ...  
ثلاثة من النساء سيساعدنك على الهرب ... ان كاليكولا عازم على ألا  
يدعك تخرج حياً من هنا ! » .

قالت الفتاة هذا بلهجة ثابتة ، وكلمات بطيئة ، بدون أن يظن اليها  
أحد ، على أمل أن يعمل سيدها بطليموس بنصيحتها ، وينهض لساعته  
من مقعده ، وينجو بنفسه من موت مدمر له ... ولكن بطليموس الملك كان  
مثلاً مثل كاليكولا الامبراطور ، ومثل غيره من المدعوين جميعاً ، من  
الرومانيين والموريتانيين على السواء ! فبدلاً من أن يفصل ما أوسته به  
الوصيفة الوفية ، رفع رأسه ووقف مترجلاً ، وأرسل فى فضساء القاعة  
قهقهة عالية ، وقال مخاطباً كاليكولا :

— أسمع أنت يا قيصر ما تقوله هذه الفتاة ؟ أسمع أنت ؟ تقول  
انك عازم على قتلى ! انها مجنونة يا قيصر ... وهى التى تستحق الموت  
لانها تفتري على مولاهما ... انها ...

ولكن « كاليكولا » لم يترك ضيفه الملك يسترسل فى هذيانه :  
فوثب من أريكته وثباً ، وأشار الى الفتاة قاطباً عليها الحراس وأخمدوا  
أنفاسها وجروا جثتها بين الموائد الى حيث انتصب قيصر واقفاً ، وعيناه

تقدحان شررا ، والزبد يسيل من فمه وهو يقول مخاطبا ضيفه الموريتاني:  
« صدقت يا بطليموس ، انها تستحق الموت .. ولقد لقيت ما تستحق ،  
كما ترى .. ولكن .. صدقت بورفورا أيضا أيها الملك ، فيما ذهبت  
اليه .. »

وبإشارة من الامبراطور الخليفة السكران ، أطبق الحراس أيضا على  
بطليموس الملك ، ومزقوا جسده بالخنجر والسيوف ..

كان ذلك في سنة ٤٠ للميلاد ، وقد أصدر الامبراطور كاليكولا  
أمره ، بعد مصرع غريمه ، بجعل مملكة موريتانيا ونوميديا المتحدة ولاية  
رومانية .

ولما بلغ الملكة « أورانيا » خبر الفاجعة التي حلت بها ، أقسمت ألا  
تدع الامبراطور قاتل زوجها يشفى غليله منها ، ويشبع نهمه الى المال  
بالاستيلاء على ثروتها ، ففرت من عاصمتها الى الجبال القريبة ، واعتصمت  
فيها ، وقد مرت شهور حاول فيها رسل « كاليكولا » الاتصال بالملكة  
الهاربة ، والبحت عن الكنوز المخبأة .. ولكن عبثا .. حتى اذا ما انفضى  
عام واحد على مصرع « ابن القمر » سقط الامبراطور نفسه قتيلا بأيدي  
أعدائه ، فاستراح العالم من شروعه ..

أما « أورانيا » الموريتانية وكنوزها ، فقد أسدل عليها ستار  
كثيف من النسيان : الى أين ذهبت ؟ واين ماتت ؟ وكيف أخفت كنوزها ؟  
لقد ماتت دون أن تطلع أحدا على سرها ، ولم يتكلم أحد من الذين  
لازموها في المرحلة الاخيرة من مراحل حياتها ، في الجبال الشاهقة ،  
المشرفة على « تاماكا » ..

وما « تاماكا » ، قلعة موريتانيا القديمة ، غير « تطوان » عاصمة  
الشمال في المغرب العربي الاقصى اليوم ..

فلو بحث الباحثون ، ونقب المنقبون في جبال تطوان بالمغرب ،  
لقداتهم الصدف الى المثور على رفات زوجة « ابن القمر » بين أكداس الذهب  
والحلل والجواهر التي دفنت معها !

# ثورة على روما

001 1 2 3 4 5 6 7 8 9 10 11 12 13 14 15 16 17 18 19 20 21 22 23 24 25 26 27 28 29 30 31 32 33 34 35 36 37 38 39 40 41 42 43 44 45 46 47 48 49 50 51 52 53 54 55 56 57 58 59 60 61 62 63 64 65 66 67 68 69 70 71 72 73 74 75 76 77 78 79 80 81 82 83 84 85 86 87 88 89 90 91 92 93 94 95 96 97 98 99 100

« العربة مع الفقر والشقاء  
خير من العبودية مع الفن  
والرخاء !





سكنت المرأة بعد أن أفرغت ما في جعبتها من أقوال وأدلة لاقتناع الرجل بأن يعمل في الحال بنصيحتها • وسكت هو بعد أن وافق على رأيها ، وناقشها لا في صواب ذلك العمل الذي جاءت تطلب منه القيسام به ، بل في الوسائل التي يمكن الاعتماد عليها لتحقيقه ...

فكر « تكفاريناس » طويلا • ومالت عليه « سيفا » وأسندت رأسها على كتفه ، واحاطت عنقه بذراعها العارية ، وتنهلت مرة بعد مرة ، ففيل له ان تنهدياتها ليس لها غير معنى واحد : « اما الاصفاء الى نصيحتها واعلان الثورة ، واما القضاء على كل أمل في التحرر من النير الروماني في بلاد نوميديا الافريقية ! » •

ولم يطل التفكير طويلا ، فقد اعتزم « تكفاريناس » أن يعمل • ولم يكن اعتزامه نتيجة اقناع المرأة له فحسب ، بل كان أيضا تلبية لنداء خفي ظل الرجل يسمح هاتفه بهيب به أثناء الليل وأطراف النهار ، ويطن في أذنيه مرددا بلا انقطاع : « الحرية يا تكفاريناس • • الحرية لوطنك نوميديا ، حتى ولو كانت مصحوبة بالفقر والشقاء ، خير ألف مرة من العبودية في ظل الحكم الاجنبي المصحوب بالفنى والرخاء • • • »

ثم يردد الصوت الخفى أيضا : « يجب ألا تكتفى بالتفكير في نفسك وحدها يا تكفاريناس ، بل عليك أيضا أن تفكر في وطنك • • • أنت جندي في جيش روما ، وبلادك مستعمرة رومانية • • • وخير لك ألف مرة أن تكون ثائرا في الجبال لتحطيم القيود التي تكبل حرية بلدك من أن تبقى جنديا تتلقى الاوامر من جلاذ بلدك ! »

أصوات خفية ، أخيف اليها الآن صوت آخر ، ليس خفيا ، بل هو مسموع ترن نبراته رنيئا عذبا في الاذن ، وينطلق من فم جميل ، هو فم تلك المرأة الساحرة ، التي جاءت تقنع تكفاريناس بأن ينفذ ما يجول في خاطرها وفي خاطره أيضا • • •

الثورة لتحرير نوميديا من حكم الرومان ، ثم مواصلة القتال لتحرير افريقية كلها ، وضمها في دولة تمتد على الساحل الشمالى للبحر المتوسط ، من حدود مصر شرقا ، الى مياه المحيط غربا • • •

وتكفاريناس واحد من أبناء نوميديا ، استهوته مظاهر البذخ في روما ، وخذعته الوعود التي بذلها له الحكام الرومانيون في بلاده، فأنخرط في سلك الجندية ، وأصبح خادما من خدم روما ، ومحاربا في صفوف جيشها ، ومنقذا لارادتها في بلاده ...

أصبح سلاحا من أسلحة الغريب التي ترغب القريب على الخضوع والخنوع ..

وعين مشرفا على تنظيم حلقات المصارعة في روما ، فهاله ما رآه من ظلم وقسوة واستهتار بالحياة . وأثار ثقته وغيظه استقدام بعض مواطنيه من إفريقيا ليشتبكوا في تلك الحلقات الصاخبة الهمجية التي كان المصارعون يقتتلون فيها لأرضاء فيصر وشعبه . وارواء تعطش الرومانيين إلى الدماء المسفوكة !

وتسائل تكفاريناس : « أينور هؤلاء المصارعون يا نرى ويحملون السلاح متى لمحاربة الطفلة ؟ »

رأى عذاب مواطنيه عن كثب : رآهم يثنون من وطأ العبودية في وطنهم الإفريقي ، ورآهم يموتون في ساحات المصارعة بروما ، فثألم ..

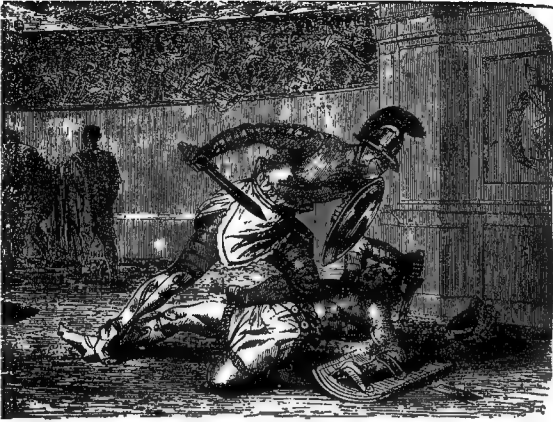
وإذا به ذات يوم يسمع ذلك الهاتف الذي أهاب به أن يتور ليرفع الظلم عن أولئك المواطنين ..

أما هي ، المرأة التي ذاع صيتها في نوميديا ، وانتقل الى روما فالتحم القصور الفاخرة ، وبلغ مسامع الامبراطور ، فهي من بنات نوميديا أيضا ، مثل تكفاريناس . ومعروف عن أسرتها انها جاءت في قديم الزمان من جزيرة العرب ، واستوطنت جبال « أوريس » في بلاد نوميديا ، وانها هي « سيفا » كانت في وقت من الاوقات وصيفة الامبراطورة في قصر « تيبيريوس فيصر » بروما ، ثم هربت من عاصمة الامبراطورية وعادت الى وطنها ، على اثر مصرع أفراد أسرتها جميعهم ، في عراك مع الجند الروماني .

قتل الرومانيون أباهما ، وأماها ، واخوتها الاربعة ، واحرقوا مزرعتهم الصغيرة في سفح الجبل على مقربة من « سيرتا » عاصمة نوميديا ...

وهربت سيفا من روما عائدة الى بلادها وفي صدرها حقد يفل ، وفي رأسها فكرة تسعى لتحقيقها ...

ووجدت تكفاريناس في طريقها فادركت في الحال انه الأداة التي



المصارعة حتى الموت في روما الأسرى والعبيد يموتون لكي يسهل  
قيصر ويظهر شعبه ؟

أعدتها لها السماء ، لكي تحقق بها الفكرة ، وتشقى غليل الحق في  
نفسها !

وتوالت الاحاديث بين الجندي الراغب في أن يكون زعيما لبلاده  
وقائدا لثورة ، والفتاة الساعية الى الانتقام لاهلها والنار للدم المسفوك .

وتم الاتفاق بين الاثنين ، لان كل واحد منهما جاء للآخر بما كان  
ينقصه .. وهكذا تتم الثورات : كل واحد من الذين يشتركون فيها يقدم  
شيئا مما تعتمد عليه القيادة لضمان النجاح ..

كانت سيفا في حاجة الى قائد يسير بالمجاهدين الى الميادين فوجدته  
في شخص تكفاريناس ...

وكان تكفاريناس فى حاجة الى المادة التى لابد منها لتغذية الثورة  
بالسلاح والمؤن ، فجاءته بها سيفا ٠٠

هربت من قصر تيبيريوس قبصر ولكنها حملت من الجواهر والحلى  
والججارة الكريمة ما يكفى لشراء كل ما يوجد فى افريقية من اسلحة ،  
وكل ما يحفظ من مؤن ٠٠١  
وقالت لتكفاريناس :

— أنت فى حاجة الى المال وما هو ذا المال بين يديك ٠٠  
ووضعت عينها أمام عينيه ، وشفتيها أمام شفتيه ، وأطلقت عبارة  
الاغراء الاخيرة من فمها العذب :

— وأنت فى حاجة الى الحب ، وما هو ذا الحب أيضا يطورك  
بذراعيه ٠٠١

وكانت القبله الحارة التى مهر بها الرجل والمرأة عهدهما ، فطبعها  
الحب المتبادل بطايع الثورة ، وطبعها الثورة بطايع الحب ٠٠٠  
اصبها عشيقين قبل أن يصبحا ثائرين ٠٠٠

واختفى تكفاريناس عن الانظار ، واختفت معه سيفا ٠٠٠  
وفجأة ، هبت الماصفة ، وارتفعت الصيحات فى أنحاء نوميديا كلها  
فى الجبال وفى السهول على السواء : صيحات الثائرين وقد تدفقوا من  
كل فج وصوب على مرابط الجنود الرومانيين ، وصيحات الجنود الذين  
فوجئوا بانفجار ما كان أحد منهم ينتظره !  
أعد تكفاريناس عدته بمهارة فائقة ، وساعدته فى ذلك سيفا الفاتنة  
الساحرة ٠

توافر المال لدى الرجل ، بما حملته اليه المرأة من ثروة سرقته من  
الرومان كما سرقها الرومان من البلدان التى يحتلونها ، وتوافر المال ٠  
توافرت الاسلحة ، وتدفقت المؤن ، وتزايد عدد المقاتلين يوما بعد يوم ٠٠  
وانضم اليهم مئات من الأسرى والعبيد الذين جاء بهم تكفاريناس  
من روما ، وبينهم عدد كبير من المصارعين !

طافت سيفا فى المدن والجبال والحقول ٠ فى الحواضر والبادى ٠  
على ساحل البحر وفى داخل البلاد ٠ داعية مواطنيها الى القتال فى سبيل

الحرية المنشودة والكرامة الغالية • قلبى السكان فى نوميديا كلها نداء  
المرأة الداعية الى تلك المثل العليا ...

وانضم المتطوعون الثائرون الى الجنود الذين تمكن تكفاريناس من  
اقناعهم بوجوب الاشتراك فى الثورة ، لانها ثورة المحكوم على الحاكم ،  
ثورة القريب على الغريب ، ثورة المواطن على الاجنبى الدخيل ، ثورة  
نوميديا على روما ... بل ثورة كل ولاية رومانية على العاصمة الطاغية !

وكان بين اولئك الجنود رجال من مصر ، ومن سورية، ومن فينيقيا،  
ومن بين النهرين ، فضلا على النوميديين والليبيين وغيرهم من سكان  
افريقية الغاضبة للحكم الرومانى ...

من اولئك جميعا ، تألف جيش الثورة التى قادها تكفاريناس مدة  
ثمانية اعوام ، والتى أوشكت أن تقوض أركان الامبراطورية وتزعزع  
كيانها ...

نشبث الثورة فى سنة ١٦ وظلت مشتعلة الى سنة ٢٤ للميلاد، وفى  
تلك الثورة ، حاربت كتيبة من الفارسات بقيادة سيفا ، فاختلت المرأة  
نصيبها مع الرجل ، من القتال فى سبيل الوطن ...

وفى المكان الذى اتخذته قائد الثورة مركزا لقيادته ، جمع أعمامه  
المقربين وزعماء القبائل ، وقطع الجميع على أنفسهم « عهد الدم » بأن  
أقسموا فيما بينهم على أن يواصلوا القتال حتى يبلغوا الغاية المنشودة أو  
يضحوا فى سبيلها بالحياة • ووقفت بينهم « سيفا » خطيبة القائد ،  
وقدمت لهم وعاء فيه دم فائر ، وطلبت منهم أن يغمسوا أيديهم فيه توكيدا  
للمهد المقطوع ، وللقسم الذى ربطوا أنفسهم به ... وهذه عادة  
قديمة لا تزال الى أيامنا هذه حية فى بعض أنحاء الشرق الادنى وافريقية  
الشمالية ...

وانطلق الثائرون الى ميادين القتال عملا بذلك العهد الذى قطعوه !

قسم تكفاريناس جموعه الى كتائب وجماعات قليلة العدد سريعة  
الحركة ، وراح يهاجم الرومان فى كل مكان وفى آن واحد ...

وأرسلت روما للمقاتلة النواراشهر قواتها ، منهم فورىوس كاميلوس،  
ولوسىوس پروتوس ، وجونيوس بليزوس ، وغيرهم من دهاة الحرب  
وأبطال الميادين ...

غلبهم تكفاريناس أو غلبوه . وكان بعد كل هزيمة يتراجع الى جبال اوريس ثم ينطلق منها من جديد ليهاجم ويقتحم وينتصر ...

جرح خمس مرات وهو في طليعة الصفوف ، ووقع مرة أسيرا في أيدي كتيبة رومانية ولكنه أفلت من الأسر بمعجزة \* وجرح سييفا مرين أمام أسوار « سيرتا » العاصمة التي كانت دائما تحرض الشائرين على أخذها عنوة من الرومان ...

وهال الامبراطور تيبيريوس أن تمرى الامبراطورية تلك الهزلة العنيفة ، وأن تعجز جحافلها عن قمع ثورة « الافريقيين » وإعادة المحكومين الى حظيرة الطاعة ، فأصدر أوامره بأن تجرد الدولة جميع قواتها ، وأن تنفق الاموال بلا حساب ، ويرسل الجنود الى الموت فوجاً بعد فوج ، حتى يفنوا جميعا وتحف خزينة المال - أو يؤتى بغايد الثورة الافريقية ذليلا مكبلا بالحديد ...

ويؤتى معه بالمرأة التي عدها الامبراطور محرصة على تلك النورة الخطرة !

وكان في النهاية للامبراطور ما أراد . وتغلبت الكثرة على القلة ، ووفرة السلاح والفن العسكري على الشجاعة المفتقرة الى العلم والنظام ...

عهد الامبراطور بقيادة الجيوش الرومانية الى أشهر رجال الحرب في ذلك الوقت . القنصل « دولابيل » .

ودولابيل هو الرجل الذي شامت الاقدار أن تخمد ثورة تكفاريناس على يده ، في سنة ٢٤ للميلاد ، أي بعد نشوبها بشمانية أعوام !

كان الثائرون يحاصرون مدينة « توبرسيكوم » فأرغمهم دولابيل على فك الحصار، وهزمهم في معركة دموية هائلة، اضطر بعدها تكفاريناس الى التراجع لاعادة تنظيم جيوشه ...

وبالقرب من مدينة « أوزيا » لحق به الروماني العنيد ، وهزمه مرة أخرى ، فتراجع تكفاريناس ثانية ولكن صفوف رجسالة كانت قد تضعفت .

عشا حاولت سييفا ، في تلك المعركة الفاصلة ، أن تحمل الثائرين على الصمود في وجه الرومان ، بأن تهجم مرة بعد أخرى على رأس كتيبة النساء المحاربات ...

فقد عجز الافريقيون وحلفاؤهم عن الصمود . وشعر تكفاريناس بان النهاية قد اقتربت ، وانه واقع لا محالة في أيدي أعدائه الرومانيين .

ونادى رفيقته في الجهاد ، وشريكته في السراء والضراء ...

ولبت سيفاً نداه ...

تراجع الناثرون عائدين الى جبالهم بعد أن تكاثرت عليهم جموع  
الرومان ...

وبعد المعركة ، طاف القائد دولابيلاً وأعوانه في أنحاء الميدان حيب  
تكسست الجثث ...

وبين تلك الجثث ، عثر الروماني على الجثتين اللتين قيل له انهما  
جثتا تكفاريناس وصديقته سيفاً ...

كانت الجثتان متعانفتين ...

وكانت الدماء تندفق من جرحين عميقين ، جرح فوق صدر الرجل ،  
وجرح في صدر المرأة ...

عمد تكفاريناس الى الانتحار خوفاً من الوقوع في الأسر ...

وجارته سيفاً فيما أقدم عليه ، فطعننت نفسها بالخنجر الذي مزق  
به حبيبتها صدره ...

ميتة واحدة ، بخنجر واحد ، في مكان واحد ...

واختلطت دماء الشهيدين وامتزجت على أرض واحدة ...

عهد الدم نفذ الى آخره !

لم تسفر ثورة تكفاريناس عن تحرير نوميديا ، ولكنها كانت مثلاً  
رائعاً ضربه الناصر البطل لطلاب الحرية التي هي دائماً وفي كل مكان وليدة  
الثورات ...

ثورة تخمد ... وثورة تنجح !

فشل يعقبه فوز في الغد !

ونوميديا التي ثار تكفاريناس ، وساهمت معه سيفاً ، من أجل  
تحريرها ، تسعى اليوم « الجزائر »

وعاصمتها « سيرا » هي اليوم « قسنطينة »

أما جبال « أوريس » فلا تزال تحمل اسمها ، ولا تزال الى أيامنا

هذه موطن البطولة ، والبركان المتأجج دائما بنيران الثورات ... في  
سبيل الحريات .

وفي واحدما ووديانها انطلقت الرصاصات الاولى في ثورة الشعب  
الجزائري ، في سنة ١٩٥٤ .

وهي الثورة التي انتهت بنصر مبین ، وباسترجاع الامستقلال  
والسيادة من غاصبيهما !



# قدیس و ہوریہ

اخذ الافرنج من عرب تونس  
قدیسامیتا ، وارساوا  
الیہم حوریہ حیا ! . . .



بلغ رسل الامبراطور شرلمان المرحلة الأخيرة من المراحل الشاقة التي تجشموا خلالها المتاعب برا وبحرا ، للوصول الى القيروان ، وأداء المهمة التي عهد بها اليهم العاهل العظيم ، وكانوا أكثر من عشرين شخصا بينهم ثلاث نساء وبعض الرهبان ، ممن سبق لهم أن زاروا أرض افريقيا من قبل .

وقبل ذلك الوفد الافرنجى في الامارة العربية بالترحاب والاکرام . فان صاحب افريقية في ذلك الوقت ، ابراهيم بن الأغلب ، كان على احسن ما يكون من الود والوفاق مع شرلمان امبراطور الغرب ، الملك في فرنسا وجرمانيا واطاليا ، بالرغم من اشتباك الافرنج وعرب الاندلس في حروب مستمرة لا تنقطع حلقاتها .

وكان العباسيون المالكون في بغداد ، يحاولون منع فلول الامويين وانصارهم من بسط سيطرتهم على اطراف الدولة العربية في الغرب ، ولهذا فقد عهد هرون الرشيد في سنة ١٨٣ للهجرة ، الموافقة لسنة ٨٠٠ للميلاد ، الى ابراهيم بن الأغلب الجوزائرى ، بالولاية على « افريقية » التي كانت تضم في ذلك الوقت جزءا من الجزائر ، والقطر التونسي ، وطرابلس وبرقة . وكان هرون الرشيد يأمل أن يظل ابن الأغلب وخلفاؤه على ولائهم للعباسيين ، بعد أن استقل الادارسة في المغرب الأقصى والامويون في الاندلس .

وانشأ ابراهيم في افريقية ملكا واسعا ، وشيد في مدينة « القيروان » التي اتخذها عاصمة له ، حرشا توارثه ابنائه وأحفاده من بعده ، من سنة ٨٠٠ الى ٩١٠ للميلاد . ( ١٨٣ الى ٢٩٨ هجرية ) فكان عهد الأغلبة هذا أمجد حقبة في تاريخ القطر التونسي ، مقر حكمهم ومحور نشاطهم . فرأس الأسرة الأمير ابراهيم بن الأغلب ، رسم الخطوط الكبرى لسياسة اصلاح وتعمير وانشاء ، نفذ بعضها في حياته ، وترك خلفائه من بعده مهمة انجاز البعض الآخر ، فأنجزوه على احسن وجه . وفي بضع عشرات من المئتين ، أحيطت السواحل التونسية بشبكة من القلاع والحصون ، واخترقت أرض تونس الطرق والقنوات ، وشيدت في

العاصمة وضواحيها الدور الفخمة ، والقصور المنيمة ، وغرست في جميع الانحاء بساتين الفاكهة من كل نوع ، جرى بها من مصر والشام ولبنان ، وانطلقت القوافل شرقا وغربا ، تحمل منتجات افرقية ، وتجيء بغيرها . وغمرت الدولة الفتية موجة من النشاط والرخاء لم تعرفها من قبل .

الى تلك الدولة الناهضة السعيدة الموفقة ، أوفد الامبراطور شلمان رسله ٥ لمقابلة الجالس على عرش القيروان ، ووضع الهدايا الثمينة بين يديه ، والافضاء اليه برجاء لا يصعب عليه تحقيقه .

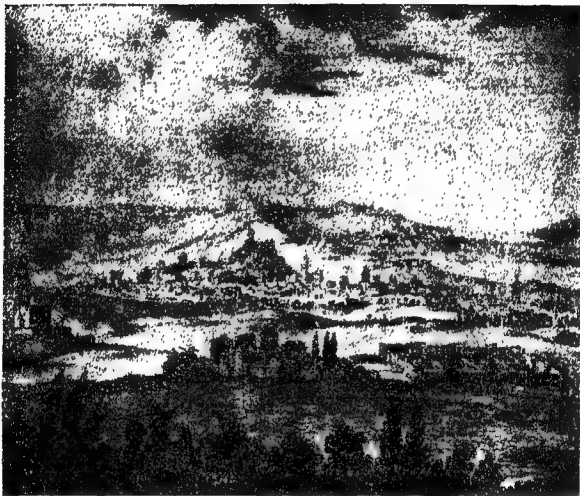
جاء وفد شلمان الى القيروان ليطلب من ابراهيم بن الاغلب السماح للفرننج بأن يفتحوا قبر الاسقف « سسبريانوس » ويضعوا رفاتة في صندوق ، ويعودوا به الى فرنسسا حيث يرغب الامبراطور شلمان في دفنه داخل كنيسة مع رفات آباءه وأجداده !

أما سسبريانوس ، فهو من الأبرار والأخيار . ولد بمدينة قرطاجنة بافرقية سنة ٢١٠ ميلادية . وقضى حياته منصرفا الى أعمال البر والاحسان . ونولى أسقفية قرطاجنة . ولما مات شهيدا بعد أن عذبه الرومان حتى أزهقوا روحه ، دفنه المسيحيون في مقر أسقفيته بقرطاجنة ، ومجدوا - منذ ذلك الوقت - ذكره ، وعدوه من القديسين . وهم يحتفلون بعيدة في السادس عشر من شهر سبتمبر .

وكانت لهذا القديس مكانة خاصة في نفوس رعايا شلمان من أبناء فرنسا ، فالحوا على ملكهم ٥ بعد مرور خمسمائة عام على وفاة القديس ، بأن يسعى لنقل رفاتة الى فرنسا ، فأوفد رسله الى صديقه صاحب افرقية ، ليغضوا اليه بأمنية العاهل الشيخ .

ونزل الرسل الافرننج ضيوفا على الأمير ابراهيم في قصره بجوار القبروان وهو القصر الذي سمي فيما بعد بقصر «العباسية» وبعد انقضاء ثلاثة أيام ، أقيمت لوفد شلمان مأدبة فاخرة ، وأعلن الأغلبى أنه ينزل على رغبة صديقه شلمان ، ويسمح لرجاله بأن ينقبوا عن ضريح القديس المسيح وينقلوا رفاتة الى بلادهم .

كان بين أعضاء الوفد الافرننج رجل يدعى « البارون كلود » وهو من اشراف القصر في بلاط الامبراطور شلمان ، أقام مدة من الزمن في بلاد الأندلس ، وتعلم اللغة العربية ، وعلمها لابنائه . فالحقه الامبراطور بالوفد للذهاب الى افرقية ليكون مترجما بين الافرننج والعرب في



صورة قديمة لـمدينة تونس

القيروان . والحت « كلوتيلد » ابنة « كلود » على أيها في أن يأخذها معه في رحلته الطويلة الشاقة ، فتردد أولا ، ولكنه اضطر الى الانزعان امام الحاح الفتاة . وهكذا وجدت « كلوتيلد » نفسها في القيروان ، ومعها اثنتان من وصيفات القصر ٥ بين عشرين رجلا من بنى قومها ، في بلد مسلم ، وفي بلاط ملك عربى !

وكان ابراهيم بن الاغلب من ناحيته قد اتخذ الحيلة لتأمين التخاطب بين رسل شرلمان ، وابناء البلاد من رعاياه . فعهد الى واحد من اخصاله بأن يتولى الترجمة بين الفريقين . ذلك الرجل هو « فياض الشهبى » النصرانى ، وهو غسانى

جاء أبوه من الشام وكان يحترف الطب ، فاستقر به المقام في القيروان حيث مارس مهنته ، وعلمها لابنه من بعده ، فنشأ فياض في عاصمة إفريقية طبيا مثل أبيه ، محبوبا من الناس ، مشمولا بعطف الحكام ، وقد قربه إبراهيم بن الأغلب منذ اليوم الذي آلت إليه فيه الولاية من هرون الرشيد ، فاصبح فياض طبيب القصر والأسرة المالكة .

كان الطبيب الشاب في الخامسة والعشرين من العمر لما وفد على القيروان رسل شرلمان قادمين من فرنسا . وشاعت الأقدار أن يلتقى ذلك النصراني الشامي بالنصراني القروي « كلود » والد الفتاة « كلوتيلد » ه وأن يشترك الثلاثة ، الطبيب العربي ، والباردون الفرنجى ، وابنته الحسنة في مهمة واحدة ، وهى تأمين التفاهم بين الفريقين ، الضيوف الذين لا يتكلمون غير لفتهم الفرنسية ، وأهل البلاد الذين لا يجيدون غير لفتهم العربية .

وقام الثلاثة بالمهمة خير قيام ...

ومرت أسابيع ، زار خلالها رسل شرلمان أنحاء الامارة الأغلبية ، ووقفوا مشدوهين إعجابا أمام المنشآت العمرانية التى تثبت من الأرض وتنمو كما ينبت العشب وينمو الشجر ، وراح بعضهم يسأل ويستفهم ويستقصى ، لكى يحمل الى سيده خبر تلك الأعمال العمرانية على أمل أن يخلدو شرلمان في وطنه حلو صديقه الأغلبى في إفريقية ، ويفعل هناك ما يفعله إبراهيم هنا .

قبل أن يبحر الرسل عائدین الى بلادهم ، حاملين الى الامبراطور الامانة التى انتشلوها من جوف الارض فى قرطاجنة دعاهم الامير الأغلبى الى مادبة وداع اقيمت فى القصر ، وحضرها عظماء المملكة والقواد والأعيان ، وأمر إبراهيم بأن تنحر الذبائح فى ذلك اليوم وتوزع لحومها على سكان القيروان جميعا ، فى الحدائق واليهاتين ، كيلا يحرم أحد من الرعايا ، من الاشتراك فى توديع الضيوف الأغراب قبيل رحيلهم ممززين مكرمين !

وفى وسط المأدبة ، فوجيء المدعوون بإعلان خبر ما كان أحد ينتظره : ذلك هو خبر رحيل الطبيب فياض الشهبى مع رسل شرلمان الى فرنسا ، حاملا معه دواء للامبراطور ، هدية من الامير إبراهيم ابن الأغلب .

فقد علم الأمير من رجال الوفد الفرنجى ، أن مليكهم الشيخ يشكو من أرق يحرمه من النوم ، وبسبب له صداعا لا يطاق ، ويوهن ما تبقى من قواه ، وهو فى سن الشيخوخة . فطلب الأمير من طبيبه الشامى علاجا لما يشكو منه صديقه ه واعد الطبيب الملاج فى شكل مزيج من مصارة الأعشاب والفواكه ، ووضع إبراهيم بن الأغلب كمية وافرة من ذلك الدواء فى قارورة من الزجاج بكسوها غطاء من الذهب الخالص لارسالها هدية الى شرلمان .

وطلب الطبيب بالحاح أن يحمل الهدية بنفسه الى المعامل الفرنجى . فاجابه الأمير الى طلبه ، وسمح له بأن يرافق الرسل فى عودتهم الى وطنهم .

وأرسل إبراهيم أيضا الى صديقه شرلمان جوادا مريبا أصيلا ، وسيفا قبضته مرصعة بالجواهر ، وسرجا من صنع القبروان !

شفى الامبراطور شرلمان من العلة التى كان يشكو منها ، واستعاد راحته ونشاطه وهذوه أعصابه ، وصار ينام نوما عميقا لا تقلقه أحلام كثيفة ولا يقطعها عليه أرق مزيج : كل ذلك بفضل العلاج الذى حملة اليه فياض الشهى ، طبيب الأغلبة الفسانى .

وفى سنة ٨١٢ للميلاد - الموافقة لسنة ١٩٦ للهجرة - عاد فياض الى القبروان ، فاذا به يجد مولاه وصديقه إبراهيم بن الأغلب على فراش الموت !

حاول أن ينقله فلم يفلح . وأبدى المريض ارتياحه لما قصه عليه طبيبه من نجاحه فى مهمته لدى الامبراطور الفرنجى . وتضاعف سروره لما أخبره فياض بأنه لم يرجع الى القبروان وحده ، بل بصحبة زوجة افرنجية رضيت بأن تربط حياتها بحياته ، وترحل معه من وطنها الى وطنه .

ولم يجد إبراهيم صعوبة فى معرفة اسم تلك الزوجة ه فقد انطلق الاسم من بين شفثيه همسا :

— كلوتيلد !

وأجاب فياض الشهى :

— نعم ، كلوتيلد يا مولاي .. فقد مات أبوها ، وأصبحت

وحيدة في هذا العالم .. وهى نصرانية مثلى ، وتجيد اللغة العربية مثل  
أبيها ...

وقال ابراهيم :

— وستصبح مثلك أنت عضوا صالحا في جسم هذه الامة التى  
تتبنها ...

— نعم ، لائى ساعلمها الطب ، لكى تنصرف الى معالجة النساء  
المريضات بينما انصرف انا الى معالجة المرضى من الرجال !  
وسكت ابراهيم لحظة ، ثم أردف قائلا :

— لقد أخذ منا شرلمان قديسا ميتا ، وأعاد الينا حورية حية !

وصدق ابراهيم بن الأغلب : فان زوجة الطبيب فياض الشهى  
كانت على جانب عظيم من الجمال والذكاء ، وقد استقرت فى القيروان  
تلك الحورية المولودة فى فرنسا ، بينما استقر فى فرنسا القديس  
سبريانوس المولود فى افريقية !

وقد ذكر بعض المؤرخين الفرنج خبر علاج الامبراطور شرلمان من  
الأرق والصداع ، على يد طبيب يدعى « فايول » .

ولم يكن « فايول » طبيبا فرنسيا ، بل كان عربيا ، وهو  
« فياض الشهى ! »

وقد مات شرلمان فى سنة ٨١٤ للميلاد الموافقة لسنة ١٩٨  
الهجرة وسبقه الى العالم الآخر صديقه وحليفه ابراهيم بن الأغلب ، فى  
سنة ٨١٢ للميلاد الموافقة لسنة ١٩٦ للهجرة .



# صهر- حج القیروان

---

تلمب الأقدار بمصائر الأفراد  
كما تلمب بمصائر الجماعات ،  
وكثيرا ما يساعد الإنسان  
الأقدار في تصرفاتها بدون  
قصده منه ! . . . . .



اصفى الأمير « أبو ابراهيم أحمد الأغلبى » باهتمام مزوج  
بالعطف الى ما قصسه عليه الطبيب « سداد » الذى جاء الى مدينة  
« القيروان » من بلاد الافرنج ، ورحب الأمير العربى بالغريب أيما  
ترحيب . وقال بعد ان فرغ من حديثه :

« ان ابوابنا مفتوحة دائما لرجال العلم أيما الطبيب الفاضل ،  
ولهذا فاننا نكرم وفادتك ، ونسهل لك مهمتك ، وننزلك ضيفا علينا ،  
مدة اقامتك بين ظهرانينا فى القيروان عاصمتنا ، وفى الأرض الافريقية  
الخاضعة لحكمنا .. فالطب علم من العلوم التى وضعتها تحت  
حمايتنا ، وقد اخذنا بيد المنصرفين الى هذا العلم لان العناية بصحة  
الأفراد واجب على الحكام .. وقد أرسلت فى طلب امرأة ذاع صيتها فى  
البلاد الافريقية ، واشتهرت بمعرفة خصائص الاعشاب ، ومدواة الناس  
بالمقايير المستخلصة منها ، وهى تدعى « نفيسة التلمسانية » التى  
ستكون لك خير دليل فى بحثك ودرسك وتنقيبك .. »

تراجعت آيات الشكر على لسان الطبيب الافرنجى ، وقال للأمير  
الكريم الذى رحب به ذلك الترحيب الحار :

« لقد طفت البلدان والأمصار أيما المولى ، جامعا ما حصلت  
عليه من معلومات وأدوية لعلاج مختلف الأمراض ، وسأكون سعيدا  
بان تبادل - الطبية الافريقية وأنا - معارفنا وتجاربنا لمصلحة  
المرضى والمعلمين .. »

وعلى حافة « صهريج القيروان » جلست فى اليوم التالى « نفيسة  
التلمسانية » ومعهما الطبيب « سادو » وراح الاثنان يتجاذبان الحديث  
فى العلم الذى أنصرفا الى دراسته ...

فما هو « صهريج القيروان ؟ » ومن هى « نفيسة ؟ » ومن هو  
« سادو ؟ »

كانت الأحوال فى « افريقية » - وهى اليوم « تونس » مضطربة

مفعمة بالقلق وأسباب الفتن ، في أواخر القرن الهجري الثاني ، فاندرك الخليفة العباسي هرون الرشيد أن الحكمة تقضى باختيار حاكم يمتاز بعدله وصرامته ومرونته ، يعيد إلى النفوس الطمأنينة ، وإلى البلاد الاستقرار ، وإلا ضاعت أفريقية من العباسيين ، كما ضاعت منهم الأندلس وبلاد المغرب الأقصى ، حيث تولى الأمر الأمويون والأدارسة ..

ووقع اختيار هرون الرشيد على بطل من أبطال الحروب ، كان أبوه « ابن سليم الأغلب » نصيرا للعباسيين وقت كفاحهم في سبيل الخلافة ، ذلك البطل هو « إبراهيم بن الأغلب » الذي هاجر من الجزائر - حيث كان يقيم - وقصد إلى تونس وتولى الحكم فيها بيد من حديد .. واتخذ مدينة « القيروان » عاصمة له ، وذلك في سنة ١٨٣ للهجرة ، الموافقة لسنة ٨٠٠ للميلاد .

وكان إبراهيم بن الأغلب بعيد النظر ثاقبه ، عالى الهمة كريما سخيا طموحا ، فأقدم على سلسلة من الأعمال العمرانية ، خلال السنوات الاثنتي عشرة التى قضاها فى الحكم ، وأصبحت « القيروان » فى عهده مدينة زاهرة مودحة بالسكان ، تشع منها أنوار المعارف ، ويقصد إليها العلماء والتجار من كل فجٍ وصوب ..

ونوارت « الأغالبة » الحكم فأنشأوا أسرة مالكة ، بلغ عدد أمرائها أحد عشر أميراً ، من سنة ٨٠٠ الى سنة ٩١٠ للميلاد ( ١٨٣ الى ٢٩٨ هجرية )

وخيم الأمن على أفريقية فى عهد هؤلاء الأمراء ، وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة ، وانتظمت وسائل النقل ، وانشئت المدن، واستخرجت المعادن ، وشيدت المساجد ودور التعليم ، وأحيطت الإمارة بحلقات متواصلة من الأسوار والقلاع والحصون ، فضلا من القصور التى ازدانت بها القيروان وغيرها من المدن ..

وفى سنة ٨٥٦ ميلادية الموافقة لسنة ٢٤٢ للهجرة - تولى الحكم أبو إبراهيم أحمد الأغلبي ، حفيد إبراهيم مؤسس الأسرة ، فسار على منهج جده ، وهنى عناية خاصة بتشجيع القصور وإقامة الجسور ، وحفر الآبار والاحواض ، لاختران الماء ، وتوسيع ما حفره جده منها .. وهذه السياسة « المائية » مفخرة من مغاخر



صهريج الامراء الاغالبة  
بالقيروان في البلاد التونسية

الأغالبة ، وقد ظلت عدة أجيال ، مصدر خير ونعمة للقطر التونسي  
بأسره ..

ولا تزال بقايا تلك الأبنية والأحواض - أو آثارها - باقية الى  
أيامنا هذه ، ومنها الحوض الكبير المستدير ، المعروف باسم « صهريج  
القيروان » والذي يرجع الفضل في بنائه الى أبي ابراهيم أحمد  
الأفطى . وكان ذلك الحوض يحفظ الماء للشرب والرى على السواء ،  
وحوله الحدائق والحقول والبساتين ، حيث يخرج سكان القيروان  
للزينة والترويح من النفس ..

أما « نفيسة التلمسانية » فقصتها أقرب من الخيال : فقد كانت  
جديتها لامها افرنجية من مرسيليا ، دفعتها الأحداث الى حياة لم تكن  
البيئة التي عاشت فيها تهيئها لها . فرافقت الجنود الافرنج في عهد  
« الامبراطور شرلمان » الى بلاد « الأندلس » ، وبقيت فيها لأنها علفت  
بحب شاب عربي ، تزوجته وهجرت من أجله قومها وبلادها وغيرته

دينها . ولكن الرجل الذى ضحى من أجله بكل ذلك ، لم يكن اهلا للتضحية ، فقد اقترف جريمة قتل ، وفر من وجه العدالة ، وترك زوجته وحيدة في بلاد ليست بلادها ، وقوم ليسوا قومها . وانقطعت اخباره عنها ، فهامت على وجهها ، حاملة بين ذراعيها طفلة صغيرة ، هى نمرة ذلك الفسرام ، والزواج . وانطلقت تضرب في طول الأرض وعرضها ، فاجتازت بلاد المغرب ، ووصلت الى الجزائر ، حيث قبض لها الله شخصا انقذهما مما كانت فيه ، فاستخدمها مربية لابنائها في مدينة « تلمسان » وعنى بطفلتها ، حتى اذا ما شسبت وترعرعت ، زوجها لواحد من ابنائه .

ولكن الاقدار ظلت تلاحق المرأة وابنتها ، فقد قتل افراد الاسرة التلمسانية في الحروب والثورات ، ولم يبق منهم على قيد الحياة غير ابنة المرأة الافرنجية وزوجها العربى « جابر » فهاجر الاثنان الى الشرق ، قاصدين الى بلد ينسيان فيه ما حل بدويهم من ويلات ، واستقر بهم المقام في القيروان ، حيث كان الامن مستتباً ، بفضل الاغالبه الميامين العادلين .

وعرف الرجل كيف يكتسب احترام الناس وعطف الحكام ، فانصرف الى ممارسة الطب والمداواة بالاعشاب ، وقد ورث ذلك الفن عن أمه الافرنجية التى اخذته عن زوجها الاول بالاندلس .

ومات « جابر التلمسانى » في عهد أبى ابراهيم الاغلب بالقيروان، ولحققت به زوجته ، تاركين فتاة وحيدة هى « نفيسة التلمسانية » التى نشأت تمارس الطب والمداواة بالاعشاب أيضا مثل أبيها وأمها وجدها . .

وذاع صيت « نفيسة » في البلاد التونسية ، وشملها أبو ابراهيم الاغلب بعطفه ورعايته ، وآثرت أن تعيش وحيدة بلا زواج ولا ولد ، فى كنف الامراء الاغالبه . فاستكفت فى كوخ قريب من باب تونس بالقيروان ، باحثة دارسة منقبة ، تعالج المرضى بعقاقيرها المستخلصة من الاعشاب وثمار الاشجار ، ينثر عليها الاغالبه خيراتهم ، وتنتشر فى الرحمة من حولها . . ؟

وكانت « نفيسة » يوم وفد الطبيب الافرنجى « سادو » الى القيروان في منتصف العقد الثالث من العمر !

وأما « سادو » فإن قصته لا تقل غرابة عن قصة زميلته الطيبية التلمسانية !

فقد وفد جده لايه من الأندلس الى بلاد الأفرنج ، في عهد الإمبراطور شلمان أيضا ، وفي ظروف غامضة .. وهناك اتخذ الرجل لنفسه وطنا غير وطنه ، وقوما غير قومه ، ودينا غير دينه .. وكان طبيبا يلزم في شفاء الأمراض بخلاصة الأعشاب .. وقد تزوج امرأة الفرنجية قتل زوجها في حروب الأندلس ، وأنجب منها ابنا كبر ومارس الطب مثل أبيه ، وأنجب الابن طبيبا ثالثا ، هو « بولس سادو » الذي عول - بعد انقراض أسرته في بلاد الأفرنج - على الطواف في العالم ، دارسا باحثا عن عقاقير جديدة ، وأبواب يجهلها من فن الطب ومواساة المرضى ..

كان اسم الجد الخارج من الأندلس الى بلاد الأفرنج « وهب السعدى » وهو من أسرة تنتمى الى نجد ، وفدت على الفرب مع الفاتحين العرب . وعرف ابنه وحفيده فيما بعد باسم « سادو » عند الأفرنج الذين امتزجت بهم الأسرة العربية ..

ولما خرج « بولس سادو » الطبيب العربي المتفرنج من مدينة « ليون » مقر أسرته ، وانطلق نحو الأندلس والساحل الأفرنجي ، معتزما قضاء حياته في سفر دائم وتنقل مستمر ، وجد من الحكام الأفرنج والعرب على السواء ، عطفًا وتقديرًا ومعونة ، بالنظر الى ماكان القوم عليه في ذلك العهد يحيطون به رجال العلم ، وعلى الخصوص الأطباء منهم ، من أكرام وأجلال ..

وفي مدينة القيروان العربية الأغلبية ، شاعت الظروف ان يلتقى الطبيب الأفرنجى بالطيبية العربية ، وأن يجمع بينهما الأمير « أبو إبراهيم الأغلب » صاحب تونس وحاكم أفريقية ، ليواصل معا أبحاثهما ودروسهما في سبيل الإنسانية المعذبة !

وما كان أبو إبراهيم الأغلب يعلم انه يجمع بين طرفي خيط واحد وانه يساعد الأقدار في لعبها بمصائر الناس !

مرة بعد مرة ، على حافة « صهرج القيروان » جلست أذن نفيسة التلمسانية ، وبولس سادو يتبادلان المعلومات ويتناقشان ويتجادلان في خصائص الأعشاب ، وما تحويه من بلاسم شافية للعلل والأمراض ..

وكانت حافة الصهريج ملتقى القسروانيين في نزهاتهم ، فانهم كانوا يخرجون من دورهم ومن مراكز أعمالهم في كل مساء ، ويمرحون في الحدائق والبساتين والرياض ، ينعمون بالنسيم المنعش ومنظر الخضرة وخير المياه ، بين الأشجار والقنوات والنوافير ، يقطفون من الأثمار أشهائها ، ومن الأزهار أجملها ، ويقعدون المجالس حلقيات حلقات ه هنا يتناقشون ويتجادلون ، وهناك يفنون ويطربون ، وهناك يستلقون على الحشائش مرتاحين مطمئنين .

كانت الحياة في ظل حكم الأغلبية هنيئة هادئة ، مفعمة بالعمل الصالح ، والاطمئنان الى القدر . وكانت إفريقية دولة عربية زاهرة ، تجلب الخير لنفسها وتوزعه حولها ، وكان أبو ابراهيم للأغلب ملكا سعيدا بسعادة شعبه ، وكان شعبه سعيدا بسعادة ملكه !

وظل الطبيب الافرنجي اباما واسابيع يطوف مع زميلته العربية، يزيدها علما وتزيده معرفة ، وفي مساء كل يوم ، يجتمع الاثنان على حافة الصهريج ، لاستعادة اختبارات يومهما ، وابتكار لون جديد من ألوان العلاج والمداواة ..

وفي ذات يوم ، بعد غناء مضمّن وطواف طويل ، جلس الاثنان كمادتها على الحافة المهدودة ، وجعلا يتناولان الطعام ، مما أعدته نفيسة من زاد ..

وجنح بهما الحديث عن سيره المعتاد ، عن الطب والأعشاب والعلاج ، الى أسرتها وأسرته ، الى ماضيها وماضيهِ .

وداخلهما القلق والاضطراب في خلال الحديث ، وكلما توغلا فيه زاد الاضطراب وزاد القلق .

سألته عن اسمه ، فروى لها ما يعرفه عنه . وسألها عن اسمها فروت له ما تعرفه عنه ..

تحدث عن الأندلس ، وعن خروج جده منها ، وتحدثت عن بلاد الافرنج وعن خروج جدتها من مرسيليا ...

وقال لها ان اسم جده « وهب السعدى » وان هذا الاسم قد تطور وتحول على السنة الافرنج وأصبح « سادر » . وقالت له ان امها ذكرت لها وهى صغيرة ذلك الاسم أكثر من مرة !



ولكشفت لهما الحقيقة شيئاً فشيئاً، وتجلت أمام أعينهما تفاصيل  
المأساة ومراحلها مرحلة بعد أخرى !

لم يكن « وهب السعدى » غير زوج الأفرنجية التى خرجت من  
مرسيليا وأستوطنت الأندلس . ولم يكن « بولس سادو » غير حفيد  
ذلك الطبيب الأندلسى الذى فر من وجه العدالة بعد إقرار جريمته،  
تاركا زوجته وطفلتها فريسة للأقدار ...

نعم ، ان « بولس » حفيد ذلك العربى الذى تولى من وطنه وعن  
قومه وعن دينه ، ونفيسة حفيدة تلك الأفرنجية التى تملت عن وطنها  
وعن قومها وعن دينها !

وها هى الظروف القاسية ، والأقدار اللاعبة بالمصائر ، تجمع فى  
مكان واحد ، فى أرض أفريقية ، على حافة صهريج بالقىروان ، بين حفيد  
الطبيب العربى المسلم ، وحفيدة الطبيبة الأفرنجية المسيحية ، وقد  
أصبح الحفيد أفرنجيا مسيحيا ، وأصبحت الحفيدة عربية مسلمة !

لم يعد الطبيب بولس سادو فى تلك الليلة الى قصر الأمير الأغلبى  
الذى استضافه . ولم تعد نفيسة التلمسانية فى تلك الليلة الى كوخها  
فى ظاهر القىروان ..

وفى صباح اليوم التالى ، فى صيف تلك السنة ، سنة ٢٤٩ هجرية  
الموافقة لسنة ٨٦٣ للميلاد ، وجدت جشتان طافيتان على سطح الماء  
الصافى ، فى صهريج القىروان !

فهل أقدم الطبيب والطبيبة على الانتحار عمداً بإلقاء نفسيهما فى  
اليم ؟ وهل استبد بهما وخز الضمير ، واعتبر كل منهما أن أسرته  
ملطخة بعار الخيانة ، خيانة الوطن ، وخيانة العشرة ، وخيانة الدين ؟  
وان العقاب الذى يرضاه الضمير ، ويرتاح اليه ، هو الموت المتعمد .  
فوضع الاثنان حداً لحياتهما ، وقطعا بأيديهما ذلك الخيط الذى ربط  
أبو ابراهيم الأغلب طرفيه مدفوعاً بمطعمه على العلم والعلماء ؟

أم أن سنة من النوم قد أخذت الطبيب والطبيبة ، بعد أن امتد بهما  
المقام ، وطال بينهما الحديث ، ولعبت بأعصابهما الشجون ، فاستلقيا  
على حافة الصهريج ، وسقطا فى الماء من غير تمعد ، وغرقا فى سكون  
الليل ، بينما كانت القىروان كلها غارقة فى نومها ؟

أمر أبو ابراهيم الأغلب أن يدفن الطبيب والطبيبة فى مكان واحد .

ولكنه أوفد الرسل الى بلاد الغرب ، وساعده الظروف على كشف  
الستار عن حقيقة « يولس سادو » أو « يولس السعدى » قبل ان  
توافيه المنية ..

فقد مات أبو ابراهيم في السنة نفسها التي غرق فيها يولس  
ونفيسة ، واحتفظ في مكتبته في « القصر القديم » بالمخطوطات التي تركها  
الاثنان ، ودونا فيها نتائج دروسهما وأبحاثهما الطبية .

وقد نقل جزء كبير من مكتبة الأغالبة الى « فاس » بالمغرب الأقصى  
لم الى الأندلس في القرون التالية ، وترك بعض مخطوطاتها في أسبانيا،  
بعد خروج العرب من الفردوس المفقود . وقد يعثر الباحثون على لىء  
منها ، لو امتدت أيديهم الى مخايم قصر « اسكوريال » على مقربة من  
مدريد عاصمة اسبانيا اليوم حيث تكدست خزائن الكتب العربية  
الأندلسية ، في اقبية تحت الأرض ، لا تزال فيها الى أيامنا هذه !



## دخلت مراكش

« نافلة » ذهبت من الشام  
الى المغرب ، ودخلت بين  
« النخيل » في مدينة مراكش ،  
بعد ان جلبت السعد للبلاد  
وأهلها .



بجوار مسجد الكتبية بمدينة مراكش ، وفي ظلال المئذنة البديعة  
التي تعد آية رائعة من آيات الفن المعماري والهندسي في الاسلام ، يجثم  
ضريح خال من مظاهر البذخ والمغظة ، ولكنه يضم رفات بطل ملا اسمه  
الدنيا وطبق في عهده الافاق : يوسف بن تاشفين .

وخارج أسوار المدينة ، بين أشجار النخيل المتراسة كانها كتائب  
المجاهدين تتأهب لرحف رهيب وفتح قريب ، قبر آخر ، ضاعت معالمه،  
ويصعب على الباحث العثور عليه : ذلك القبر يضم رفات امرأة كان لها  
في حروب ابن تاشفين نصيب ، وفي انشاء مدينة مراكش فضل كبير :  
« نخلة اللمعية الشامية » التي عرفها رفاق الفاتح العظيم من أبطال  
« المرابطين » باسم « نخلة مراكش » والتي تتغنى الاطفال والافصان بذكرها  
العطر بلا شك ، كلما داعب النسيم سعف النخيل او عصفت بها الرياح  
في سهل « المدينة الحمراء » .

مشى أبو بكر بن عمر اللمتوني ، أمير المثلثين ، وعميد الاشياخ  
المرابطين ، من الجنوب حيث كانت قبائل البربر تضرب مضاربها ، الى  
الشمال حيث المدن والقرى والمزارع والحقول . وحالفه النصر من مرحلة  
الى مرحلة فبسط سلطانه على البلدان الممتدة في محاذة جبال الأطلس  
وبين شعابها ووديانها ، ولكن ظروفا قاهرة أرغمت القائد الموفق على  
العودة ادراجه من حيث اتي ، فالتقى بمقاليد الامور الى ابن عمه يوسف  
ابن تاشفين ونادى به قائدا للبربر وعميدا لاشياخ المرابطين ولقبه بأمر  
المسلمين ، فكان يوسف عند حسن الظن به ، وجديرا بتأدية الرسالة  
التي وضعها ابن عمه أبو بكر امانة في عنقه .

قرر يوسف اذن مواصلة الزحف شمالا ، وفي آن واحد انشاء  
سلسلة من القلاع والحصون والمدن ، وترك حاميات فيها ، واقامة حكم  
المرابطين على أسس قوية ودعائم ثابتة ، وأخيرا مكان صالح لبناء عاصمة  
للدولة الجديدة التي لم يشك القائد لحظة واحدة في انها ستبسط  
سلطانها على المغرب كله .

وكان يوسف بن تاشفين يعتمد في أعماله الحربية على ردهط من

رفاقه في الجهاد ، وثق بهم ووثقوا به ، وجعل منهم مستشاريه في كل كبيرة وصغيرة ، بل جعل منهم ما سمي فيما بعد ، بلغة الجيوش ، هيئة « أركان الحرب » التي يعتمد عليها كل قائد .

أما الشخص الذي كان يوسف يستشير أكثر من غيره ، ويعمل براه أكثر من غيره ، فامراة رافقت المرابطين في غزواتهم الموفقة منذ اللحظة الاولى ، ونظروا اليها جميعا نظرة زعيمهم ، فاعتقدوا فيها القدرة على استطلاع الغيب والقراءة في صفحة القضاء ومعرفة ما يخبئ الفد من مراقبة الطيور في روحاتها وهجراتها ...

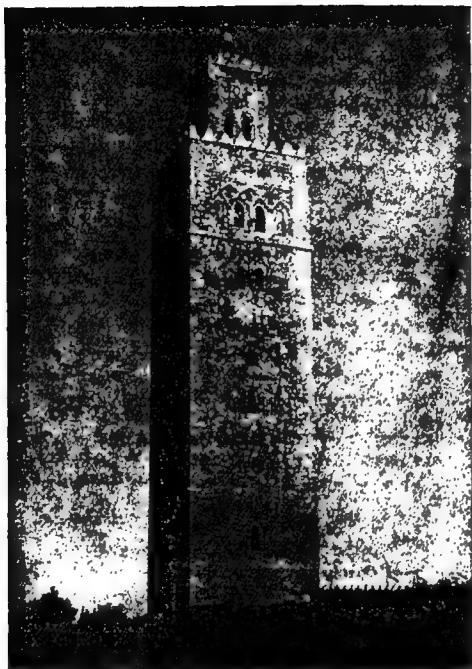
هذا ما كان يعتقده يوسف بن تاشفين ورفاقه ، وزادوا عليه اعتقادهم في قرارة أنفسهم أن « نخلة الدحية السامية » تجلب لهم الخير وتضمن لقائهم النصر ما دامت ملازمة لهم في أسفارهم وحروبهم وفتوحاتهم . فهي في نظر يوسف وفي الواقع ، عرافة لا تخطيء ، ونبيمة لا يفارقها السعد .

ونخلة بنت رجل شامي يدعى « فهد اللمى » جاء الى المغرب مع الحجاج المرابطين ، واستشهد في حروبهم ، وماتت زوجته تاركة وحيدتها « نخلة » وديعة بين يدي أبي بكر بن عمر اللموني ، فأنقذها يوسف بن تاشفين ذات مرة من مخالب ذئب هاجم المضارب في خلال رحلة من رحلات القبائل البربرية عند تخوم شنقيط . وأقسمت الفتاة أن تعيش في كنف منقلدها وتقف نفسها على خدمته ، وأن ترافقه في حروبه وتشاركه القتال وتخوض غمار المعارك على ظهور الابل والمهاري ، ككل محارب من أبناء القبائل ...

هذا ما عرفه عنها أولئك الرجال الأشداء الذين قادهم أبو بكر ابن عمر أولا ، ثم يوسف بن تاشفين من بعده ، الى فتح الأقطان والأمصار ، واخضاع الحضر والبدو من سكان المغرب ..

عرفوا اسمها . وعرفوا وأيقنوا انها عرافة تنبئهم بما يخبئ لهم الفد . وجلاية للسعد لكل من يلمس ثوبها أو يرافقها في سفر أو في حرب ...

وأحببها « زينب » زوجة يوسف بن تاشفين كما أحبها زوجها ، بل أرادت الزوجة أن يتخذ زوجها القائد المنتصر تلك الشامية الفتية الحسناء خلية له وزوجة تشاركها قلبه . ولكن نخلة نفسها رفضت أن



صومعة « الكتبية » بالمسجد الكبير  
بشا يوسف بن تاشفين بمراكشة

يسبغ عليها منقدها وسيدها ذلك الذى كانت تمده شرفا لها . فقد  
قالت لزينب :

— ايها السيدة المصونة ، ان بقائى علواء شرط لازم للاحتفاظ  
بقدرتى على استطلاع الغيب من ناحية ، كما يمتد الناس ، وعلى جلب  
السعد لمن يلازمنى ، كما يمتد زوجك على الخصوص . فنخلة اللعمية  
لن تتخذ لنفسها بطلا من الرجال . وفى اليوم الذى يحدث فيه هذا ،  
تفقد نخلة تلك المزايا التى تتمتع بها ، وتلك الصفات التى تجعلكم  
جميعا تحبونها وتحترمونها ونحافظون على حياتها ..

ويوم القى ابو بكر بن عمر بمقاليد الجيش الزاحف الى ابن عمه  
يوسف ، قالت نخلة للقائد الجديد :

— ان غداك يا يوسف لمفعم بالعظام والكبائر !.. نحن الآن فى مكان  
كان الأقدمون قد اتخذوه مقرا لألهتهم ، وهيكلأ لأصنامهم ، ومسرحا  
لأعبادهم وأفراحهم ، واننا نرى حولنا آثار تلك المصور الخوالى ، التى  
كانت فيها شعوب انقرضت الآن تحكم هنا وتسود . وفى هذا المكان ،  
أرى أن تنشأ أول مدينة تحمل طابعك وطابع القوم الذين تتولى قيادتهم  
الى النصر .

وسال يوسف :

— أرجو يا نخلة أن تتصفحى ما تنصحنى به الكواكب والنجوم ،  
وان تنبئينى بالاسم الذى يجعل بر أن أطلقه على المدينة الجديدة ، وهل  
أجعلها عاصمة ملكى أم مرحلة من مراحل الزحف الى الشمال ؟ ..

وفى اليوم التالى ، جاءه الرد :

— يوسف ، أطلق على مدينتك اسم « تماركش » وشيد بيوتها  
وأسوارها من الحجارة الحمراء ، وأجعل فى وسطها مسجدا جامعاً  
تشرف مثذنته على السهول المحيطة بالمدينة العتيقة التى يجدر بك ان  
تعددها من الآن عاصمة دولتك .

— وهل اترك السهول جرداء كما هى الآن ؟

— كلا .. بل سوف نجىء اليها بالآف من فسائل النخيل ، من  
الغابات الجنوبية التى نشأت وترعرعت فيها عشائر البربر .

ونفذ يوسف نصيحة المرافة . ولكنه اشترط عليها ان تظل



ملازمة للعمال والصناع والبنائين الذين عهد اليهم الفاتح في انشاء  
عاصمته الجديدة . فقد قال لها :

— يجب ان يظل السعد مخيما على المكان حتى تصبح المدينة أمرا  
واقعا . فعليك يا نخلة أن لا تنتقلي من هنا ، وأن تضمني ببقائك في  
تمراكش نجاح الأعمال وسيرها بسرعة ...  
وهذا ما حدث !

فقد أشرفت نخلة على وضع الرسوم والتصميمات وتخطيط  
الطرق والازقة ، وحفر القنوات وجرى آلياء من الينابيع والجداول الى  
داخل المدينة ...

وأشرفت بصورة خاصة على نقل فسائل النخيل من أقصى  
الجنوب ، وغرسها حول المدينة لكي تنمو في الوقت الذي تشيد فيه  
المساكن والدور الرسمية والمساجد وتكنات الجيش ...  
كل ذلك تم في سنة واحدة : ٤٥٥ هجرية ، الموافقة لسنة ١٠٦٢  
للميلاد .

نبتت المدينة في الصحراء بقدرة قادر ، وأحاطها يوسف بن تاشفين  
بسور من الحجر الاحمر ، وفرش أرضها بالرمال الحمراء ، وسماها  
بلغة البربر « تمراكش » وهو الاسم الذي حرفته الالسنه على كمر الأيام  
فأصبح « مراكش » وظل اسم القطر كله الذي كانت المدينة المرابطية  
عاصمة له ، المغرب الأقصى ...

المدينة التي تمتد حولها السهول الخضراء بنخيلها الذي لا حصر  
له ، والذي يرجع الفضل في غرس فسائله الاولى الى صديقة الفاتح  
ورفيقته في فتوحاته ، نخلة اللعينة الشامية ...

المدينة التي قدر لها أن يبلغ عدد سكانها في أوج عظمتها أكثر من  
نصف مليون ساكن . والتي شبهها الأجانب الذين زاروها بياقوتة ضخمة  
حمراء ، وسط حقل من الزمرد الاخضر ، لشدة حمرة ثيابها عندما تنصب  
عليها أشعة الشمس ، ولبهاء خضرتها المتماوجة عندما تلعب الرياح  
بسفح النخيل في الغابات المترامية الاطراف ...

ووراء كل عمل أقدم عليه يوسف بن تاشفين ، في ميدان الحرب  
أو في مضمار الانشاء والتعمير ، رأى للمرأة التي كان يعتقد فيها القدرتين ،  
قدرة معرفة الغيب وقدرة جلب السعد ...

كانت نخلة اللمعية مع القائد يوم دخل مدينة فاس فاتحا . وكانت معه يوم قفز من المغرب الى الاندلس ، لنجدة المعتمد بن عباد وهزم الافرنج في وقعة « الزلاقة » التي دمر فيها المحاربون الاسبانيون اذ رأوا للمرة الاولى الهجن الخفيفة السريعة تخوض الميادين بجانب الخيول المطهمة .

وكانت نخلة اللمعية مع القائد المظفر في جميع المراحل التي اجتازها يوسف بن تاشفين في اقامة ملكه وانشاء دولة المرابطين التي امتد سلطانها من اسبانيا الى اطراف الصحراء الكبرى ...

وكان يوسف بن تاشفين بجانب نخلة اللمعية الشامية ، يوم اشتدت عليها وطأة الحمى، فماتت تدمو للمرابطين بدوام العز والنصر...

كان ذلك في سنة خمسمائة للهجرة ، الموافقة لسنة ١١٠٦ للميلاد، بمدينة مراکش التي اشرفت المرأة على انشائها .

ونفذ يوسف بن تاشفين رغبة العرافة الاخيرة فامر بأن تدفن في ظلال النخيل ، على مقربة من الاسوار الحمراء .

وفي السنة نفسها ، لحق يوسف بن تاشفين بالمرأة التي كان يعتقد اعتقادا راسخا ان بقاءه مرتبط ببقائها ، وان موته لابد أن يتبع موتها ..

ودفن أبو يعقوب يوسف بن تاشفين ، أمير المسلمين ، وأمر المؤمنين ، وشيخ المرابطين ، في الضريح الذي أمده لنفسه ، بجوار المسجد الاكبر الذي بناه في عاصمة ملكه ، وعرف باسم الكتبية .

قرون مضت على وفاة الفاتح العظيم ، وضريحه باق في مكانه . وأما ضريح العرافة التي اكرمها وكانت له وقية ، فقد طقت عليه الرمال وطوته جلدوع النخيل بين أذرعتها العديدة فاختلفت معاله ..

ولكن أشجار النخيل باقية ، تتكاثر يوما بعد يوم ، وتتمتع عند الغروب اسم « النخلة » التي جاءت من المشرق الى المغرب ، من الشام الى مراکش لنستطلع الغيب وتجلب السعد !

# غادة الأديم

---

كرمت خليلها الجبان ،  
فأثرت عليه منوه الشجاع ،  
وانتقلت من بيئة الى بيئة !



لم يلق الحاكم في ذلك اليوم طعم الراحة ، ولم يغمض له في الليل  
جفن : فالاجبار التي حملها اليه الرسل الذين اوفدهم للاستطلاع ، زادت  
مخاوفه ، واتمت له صحة الاشاعات التي توالت على الحصن الذي يقيم  
فيه ، والقائلة بان قوة من المغاربة في طريقها اليه ..

كان ذلك المكان من ساحل المغرب الاقصى ، على بحر الظلمات ،  
مقصد الصيادين لوفرة السمك في مياهه ، وصلاحية شاطئه لرسو  
السفن ، وتفرغها ، أو لاحتماها من الامواج الهائجة ، يوم تهب العواصف  
وتشتد الرياح .

وكان جميع الصيادين الذين يقصدون ذلك المكان المحظوظ ، أو  
معظمهم ، من البرتغاليين . فالاسطول البرتغالي كان مسيطرا على البحار  
تجاه السواحل الافريقية ، وكان له في بعض انحاء المغرب ثغور يأوى  
اليها ، وقلاع تحمي الثغور ، وحاميات تقيم في القلاع !

طلب الصيادون البرتغاليون من ملكهم أن يضيف الى تلك الحاميات  
حامية . والى تلك القلاع قلعة ، والى تلك الثغور ثغرا . فاجابهم الى  
طلبهم ، وانشأ لهم حصنا في المكان الذي اختاروه ، أطلق عليه اسم  
« سانتا كروز » أي « الصليب المقدس » وجعل له حامية بقيادة حاكم  
من قواد جيشه ، ودعا الصيادين الى اقامة اكواخ وبناء منازل على  
شاطئ البحر ، في حماية الحصن النيع .

ومرت اموام ، والحصن والبلدة في امان ..

ولكنه امان لم يدم طويلا !

في داخل المغرب ، كان « السعديون » قد بدءوا ينشئون دولتهم ،  
بعد أن أدرك الانحلال دولة « المرينيين » وكان الشريف أبو عبد الله  
محمد الشيخ ، الملقب بالمهدي ، قد اقتطع لنفسه امارة في « تارودنت »  
ناحية الجنوب ، وعمل بجهد ونشاط لتوسيع رقعتها . وتأمين اطرافها .  
تطلع الى الساحل فلذا به يجد الثغور البرتغالية وقلاعها  
وحامياتها ، تمتد في حلقات تكاد تكون متواصلة ، من شمال المغرب في

طنجة ، الى جنوبه فى سانتا كروز . فقرر التخلص من أولئك الاغراب ، فى الاماكن التى يحتلونها بجوار امارته .. وجعل سانتا كروز هدفه الأول ...

وكان ذلك فى سنة ١٥٣٦ للميلاد ، الموافقة لسنة ٩٤٢ للهجرة .

كان يقود الحامية ، ويحكم البلدة ، فى ذلك الوقت ، رجل ذو ماضٍ مجيد ومواقف فى الحروب مشرفة : النبيل جوتيريز دى مونروى . وكانت تقيم معه فى الحصن ابنته الوحيدة « فرانشيسكا » التى خطبت لشاب من اقارب اسرتها ، ضابط فى الجيش ، اختاره والدها ليحل محله فى قيادة الموقع اذا حدث ما يضطره الى التخلي عنه .

واقترب الموعد المحدد للزواج ، وجعل سكان البلدة وجنود الحامية يمنون انفسهم باقامة مهرجان وقضاء بضمة ايام فى فرح ومرح ، فى تلك المناسبة السعيدة .

وقرروا ان يقدموا للعروس معطفا مصنوعا بايدي نساءهم ، هدية يوم زواجها .

وحدث ما لم يكن فى الحسبان !

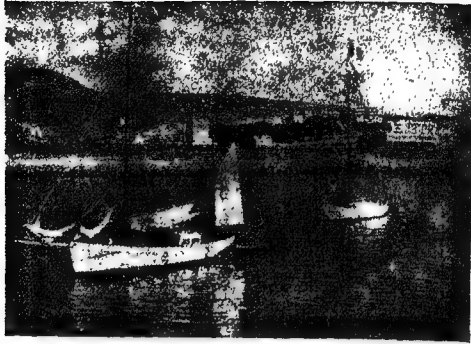
تلقى الحاكم تلك الاخبار المقلقة من قرب زحف المغاربة على موقع سانتا كروز ، فأنذر السكان بالخطر القادم . واعد العدة للصمود ، وأوفدوا بيدرو خطيب ابنته رسولا الى الملك لطلب النجدة ...

وتولت الفتاة نفسها تدريب النساء على الاشتراك مع الجنود والسكان فى أعمال الدفاع . وما مرت ايام حتى كان كل شيء فى الموقع الحصين قد تغير ، وحتى كانت طلائع القوة المغربية الزاحفة قد بدت من بعيد ...

وبدا الصراع بين الطرفين ...

كان القتال مريراً ...

الشريف محمد المهدي قائد محنك ، وقد رسم لنفسه خطة صمم على تطبيقها بحداخيرها ، للسيطرة على الساحل الجنوبي من البلاد المغربية ، ثم الانصراف الى بسط سلطانه على قلب البلاد وشمالها . ولا بد له من تنظيف الشناطىء من القواعد البرتغالية ، وفى مقدمتها سانتا كروز .



الكثير ...

دمرها الزلازل في سنة ١٩٦٠

وجوتيريز دى مونروى خصم عنيد ، أقسم للملك بأن يحتفظ له  
بالحصن المنيع ، الواقع في طرف السلسلة الطويلة من الحصون المشيدة  
على الساحل . وهو عازم على البر بقسمه .

تجلت البطولة الحقة من الجانبين ...

كان الهجوم عنيفا ، وكان الدفاع رافعا !

وبدا جوتيريز يشعر بأن الكفة راجحة لمصلحة خصمه . وأن  
السمود لن يطول إذ لم يعد « بيدرو » بنجدة من الرجال والعتاد ، قبل  
فوات الوقت ..

وكانت فرانسيسكا ، أثناء الحصار ، وكلما اشتدت وطأته ، تبذل  
جهدها في استنهاض همم الرجال وتقوية الأمل في نفوس النساء ، مرددة  
بلا انقطاع ومؤمنة بما تقول : « سوف يصل بيدرو قريبا ، عائدا من  
الشمال ، ومعه النجدة التى نرجوها ! ... »

ولكن الايام والليالي تمر متتابة ، ويبدرو لا يعود ، والحصار  
حول الحصن ساعة بعد ساعة ...

الاصابات بين رجال الحامية كثيرة ... المؤن تنقص يوما بعد يوم  
... النجذات لا تصل الى البرتغاليين بل تصل الى المغاربة .. الهجوم  
يشند والدفاع يضعف ...

وحل الموعد الذي حددته الشريف السعدي للوثبة الكبرى ، لاخذ  
الحصن عنوة بعد ان فتح الحصار ثغرة في الاسوار ، وزرع الثقة في  
نفوس المدافعين ...

عند الفجر ، تحرك المغاربة الى الامام وفي طليعتهم الشريف قائدهم،  
وحوله حاملو الاعلام وضاربو الطبول ، وتصاعنت في الجو صيحات  
الحرب من الجانبين ، ودخل الصراع في مرحلته الفاصلة !

أصيب جوتيريز دى مونروى بجرح في كتفه ، وهولت ابنته  
فرانثيسكا لاسعافه وعلى وجهها في آن واحد امارات القلق وعلامات  
الارتياح ، وقالت بصوت ارادته ان يكون ثابت الثبرات :

- أبى .. أبى .. أرى قلوب سفينتين في الافق القريب .. يبدرو  
.. يبدرو خالد الينا بالنجدة المرجوة .. أبشر ... أبشر يا أبى فان  
الحصن لن يسقط في قبضة الاعداء !

واصل جوتيريز اداء مهمته بالرغم من الجرح الذي اصابه والذي  
لم يكن على جانب من الخطر ولكن الجهود التي بذلها ، والشجاعة التي  
تجلت في رجاله ، وقوة الارادة التي تحلت بها فرانثيسكا وصويحاتها  
من النساء ، كلها ذهبت سدى ولم تنقل الحصن من مصيره المحتوم !

تمكن المغاربة من اقتحام الاسوار ، فتسلقوا بعضها ، وهدموا  
بعضها ، ووقعت في الداخل مذبحة رهيبة ..

وتطلعت فرانثيسكا الى مياه البحر ، حيث كانت السفينتان  
تتهاديان على مقربة من الشاطئ . فاذا بها تلاحظ أمرا لم تكن تتوقعه !

رأى يبدرو ، بعد أن أصبح في مواجهة الحصن ، أن المغاربة  
متفوقون على البرتغاليين ، وأن الدفاع قد انهيار ، وأن جماعة من  
المهاجمين قد استولوا على المراكب الصغيرة الراسية على شاطئ البلدة،  
وانطلقوا بها في اتجاه السفينتين .



## تردد الشاب ..

وأدرك أن نزوله مع نجسده الى البر قد أصبح متعللاً ، أو محفوفاً بالخطر فلم يقدم على مغامرة قد يكون الهلاك نصيبه منها ! ولما ارتفعت على الأبراج أعلام الشريف السعدي ، أصدر يلدرو أمره الى السفينتين بالعودة الى الوراء ...

فطلعت فرانشيسكا الى هذا الذي حدث ، وصاحت بلا وعي ، وبصوت تخنقه عبرات الغيظ : « جيان .. جيان .. »

خطيبها يهرب من المعركة قبل أن يخوضها ... وأبوها جريح يواصل قتالاً لا أمل فيه .. وجنود يستقون حولها قتلى أو جرحى ... ونساء دب الرعب في نفوسهن فهربن الى السرايب يختبئن فيها ... صاحت الفتاة : « أبى ! .. أبى ! .. ضع حدا لهذه المجزرة .. فقد وقيت ما عليك ، وقاومت ما استطعت .. وضميرك مرتاح ... فلا عار عليك اذا استسلمت ! »

فطلب جوتيريز دى مونروى الكف عن القتال ... وهرض على الشريف محمد المهدي هدنة يتم بعدها تسليم الموقع بما فيه !

كان النصر حليف المغاربة في ذلك اليوم ، فقد قتل معظم المدافعين من الحصن . ووقع الاحياء في الاسر ، وأصبح موقع سانتا كروز شنيمة للمنتصرين ...

وقال الحاكم البرتغالي لمحمد المهدي : « أنا وابنتى بين يديك . فافعل بنا ما تشاء ! »

وأجاب الشريف السعدي : « انت حر طليق . فقد كنت في دفاعك عن الامانة التي كانت في عنقك بطلا شجاعاً .. والبقية الباقية من رجالك ومن سكان البلدة احرار أيضاً ... فاذهبوا الى حيث تريدون ... اما ابنتك ، التي شاهدت بطولتها في القتال كما شاهدت بطولتك ، فهي حرة بأن تلحق بك .. او بأن تبقى معنا ... »

دهش القائد البرتغالي مما قاله خصمه المشرقي . وردد قائلاً : « ابنتى ... تبقى معكم ؟ .. »

وأجاب محمد المهدي : « نعم ... تبقى اذا ارادت ... زوجة لي ! »

وفوجيء جوتيريز بابنته تجيب بنفسها على ما عرضه الشريف السعدى : « أبى ! .. اذهبوا أنتم .. أما أنا ، فبأقية هنا .. راضية بأن أربط مصرى بهذا السيد المخرى الذى انتصر علينا .. سعيدة بأن أبتعد عن الرجل البرتغالى الذى جين سن خوض المعركة ، وفر من الميدان ، وخان الوطن والأهل والحب ! »

كرهت الفتاة فجأة الشاب الذى كانت من قبل قد وقفت له حياتها ووهبته قلبها . فرضيت بما عرضه الشريف على أبيها ، واعتزمت منذ تلك اللحظة أن تستبدل وطنها بوطن ، وقوما بقوم ، وأهلا بأهل !

رحل البرتغاليون من سانتا كروز عائدین الى بلادهم ..

وكان الوداع مؤثرا بين الفتاة الباقية ، ووالدها الحزين ، ومواطنيها المغلوبين على أمرهم ...

وأرادت النساء أن تحفظ فرانشيسكا لهن مودة تذكرها بماضيها ، فقدمن اليها المعطف الذى أمددته لها هدية ليوم عرسها ..

طلبن منها أن ترتديه يوم يتم زواجهما ، بعد أن لعبت الاقدار بمصرها ، ومصر خطيبها البرتغالى .

فوعدت بأن تفعل ذلك . وبأن تذكر صائمات المعطف بالخير فى حياتها الجديدة ...

واتخذ الشريف السعدى محمد المهدي الفتاة فرانشيسكا ابنة جوتيريزى دى مونروى زوجة له ...

وأمر بامادة بناء الحصن وتسليم البلدة الى الصيادين المغاربة الراغبين فى الإقامة فيها ..

وجعل للحصن حامية تصونه وترعاه ...

وأطلق على البلدة وعلى الحصن اسما جديدا ، فسميت سانتا كروز منذ ذلك الوقت باسم « أكدير ادهير » ومعنى هذا الاسم بلغة البربر سكان الجبال المجاورة « قلعة التل »

وفى سنة ١٥٤٣ للميلاد ، الموافقة لسنة ٩٤٩ للهجرة ، تولى

« الشريف السعدى محمد الشيخ المهدي الملك في المغرب » فكان الثاني  
من السلاطين السعديين ..

أما البلدة التي غير اسمها ، فقد درج الناس على تسميتها فيما  
بعد « اغادير » وهي التي دمرها زلزال عنيف في التاسع والعشرين من  
شهر فبراير سنة ١٩٦٠ - الموافقة لسنة ١٣٧٩ للهجرة ، فاهتز الملك  
محمد الخامس العلوي أعادة بنائها ...



# معركة الملوك الثلاثة

---

أصفت المرأة لصوت الحب ،  
ومات حبها وحققها في معركة  
قتل فيها ثلاثة ملوك !



ظل أبو عبد الله لحظات مفكرا صامتا ، لم رفع رأسه ، ومد يده  
مداعب جدائل المرأة الجائية أمامه ومر بأنامله على الجبين الوضاح ، وأخذ  
الأملس ، فرمقته بياراتيس بنظرات تنم في آن واحد عن حب وحقد . وعن  
رجاء في أن يجيبها إلى ما طلبته منه ...

إنها تحبه ...

إنها تحقد على أعدائه ...

إنها تريد انتقاذه من المازق الذي أوقع نفسه فيه ، لأن في انتقاذه  
فوزا لحبها ، وأرضاء لحقدتها .

وقال أبو عبد الله :

— سأفكر في هذا يا صديقتي ... وسأوافيك بالرد هذا بلذن  
الله .

ولكنها أمسكت بكففيه وهزتهما بشيء من العنف ، وصاحت قائلا:

— كل يوم يمر على هذه الحالة يزيدنا تعقيدا ويفقدك فرصة قد  
لا تعوض ... دعني أذهب يا محمد ! دعني أفعل ما عرضته عليك ...  
فلا سبيل إلى الخلاص إلا بهذا ...

فمسكت أبو عبد الله لحظة أخرى ، ثم تنهد قائلا :

— اذهبي ، على بركة الله !

وخرجت بياراتيس مهرولة من العجوة التي حبست نفسها فيها  
ساعة كاملة لاقتاع صديقها بالموافقة على الخطة التي رسمتها له ،  
وأسرعت إلى مراح الخيل فامتطت فرسا أصيلة ، وانطلقت بها تقطع  
الفيافي والجبال .

إلى أين ذهبت ؟ ومن هي ؟ ومن هو ؟ وماذا تريد الفارسة العجيبة  
أن تفعل ؟

هو مولاى أبو عبد الله محمد المتوكل ، السلطان الذى اعتلى عرش المغرب بمدينة فاس سنة ١٥٧٣ ميلادية ، الموافقة لسنة ٩٨١ للهجرة خلفا لأبيه ، ولكنه فاز بالعرش دون أن يفوز ببسطة العلماء ، ورضى أسرته ، ومحبة شعبه .

وما أن مرت شهور على اعتلائه العرش ، حتى هب صه أبو مروان عبد الملك لأقصائه عنه ، فتم للعم طرد ابن أخيه من العاصمة ، ونادى بنفسه سلطانا ولقب بالمتصم . واضطر أبو عبد الله محمد المتوكل الى الهرب فلجأ الى مدينة مراكش .

أما هى ، المرأة ، فأسيرة برتغالية عاشت فى كنف الأسرة السعدية المالكة ، وتونقت عرى الصداقة والمحبة بينها وبين محمد ، فرفضت الحرية يوم أراد السلطان ، وأراد أبوه من قبله ، إطلاقها من الأسر ، وآثرت البقاء فى فارس ، على العودة الى قومها ووطنها البرتغال .

وأما ما عرضته على صديقها فى ذلك اليوم ، بعد أن قلب له الدهر ظهر المجن ، وأحاط به الخطر الداهم ، فأوشك أن يفقد الحياة بعد أن فقد العرش ، فهو أن يلجأ الى البرتغال ، ويستعين بالملك سباستيانو الجالس على مرثه فى لشبونة ، ويحالفه على صه عبد الملك ، ويتعاقد معه على العمل معا ، هو فى سبيل استرجاع الملك ، والملك البرتغالى فى سبيل الاحتفاظ بممتلكاته على سواحل المغرب ، وتوسيع رقعتها بعد النصر .

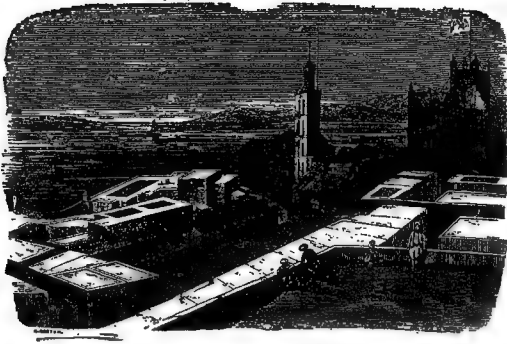
تردد أبو عبد الله فى بادئ الأمر ، ولكن حب السلطة ، والرغبة فى الثار من صه ، والخوف من فقدان الثروة والنجاه ، كل ذلك دفعه الى قبول ما عرضته عليه بياتريس البرتغالية ، فأذن لها بأن تسبقه ، على أن يلحق بها بدون إبطاء .

ولحق بها . والتقى الإنسان مع فريق من الإهوان عند الساحل بالقرب من طنجة ، وركبوا البحر ميممين شطر البرتغال .

وهناك تعاقد السلطان الهارب من المغرب ، مع الملك الطامع فى احتلال المغرب ، على العمل معا فى سبيل الهدفين : السلطان المغربى لاسترجاع مرثه بمساعدة الملك البرتغالى ، والملك البرتغالى لضمان سيادة البرتغال على السواحل المغربية بما فيها من ثور .

وعلم عبد الملك ، فى عاصمته فاس ، بما تم بين ابن أخيه الهارب منه ، وسباستيان الذى أجاره ، فأوفد من يعرض على الملك البرتغالى





صورة قديمة لمدينة طنجة ،

على الساحل القري ، بجاء

الساحل الاسباني

شروطا مغرية ، حملته على التخلل عن حليفه ، وعدم المجيء الى المغرب على  
راس حملة عسكرية للفرز والفتح .

غير ان ملك البرتغال ، وهو شاب في مطلع العقد الثالث من العمر ،  
داخله الزهو والفور ، لما رأى سلطانا بلجا اليه ، وآخر يتملقه بالوعود ،  
فطرد رسل عبد الملك ، وأصدر في الحال أوامره بتعبئة الجيش  
والاسطول ، واعداد العدة للحرب والقتال !

وفرحت بياتريس بما لقيته مساعيها من نجاح ، فقد وجدت  
عروضها آذانا صاغية لدى الملك الشاب ، لأن سياستيان كان يفكر ،  
مند أن اهتلى العرش ، في الاقدام على مغامرة جريئة للاستيلاء على  
الثغور المغربية . ولما لجأ اليه أبو عبد الله ، بتحريض من المرأة التي  
احبته ، رأى في ذلك اشارة من الاقدار بأن يقدم في الحال على ما اعتزم  
القيام به ، لأن معونة فريق من المغاربة على الفريق الآخر نعمة سيكون  
لها في سير القتال وبلوغ النتائج وزنها وقدرها .

وأعلنت السفن البرتغالية بالحملة التي أهدمها الملك الطامع ، والتي ضمت ، بخلاف جنوده ، مرتزقة من الألمان والإيطاليين والأسبانيين ، فضلا عن أنصار أبي عبد الله الذين التحقوا بالحملة على إثر نزولها إلى البر المغربي ، بين طنجة والعرراش .

واستولى الغزاة على هاتين المدينتين بعد قتال شديد .

وظن أبو عبد الله أن الحظ قد هجر صفوف خصومه واستقر في صفه هو ، وظن سباستيانو أيضا أن فتح المغرب بأسره أصبح ميسورا وفي متناول يده ، ما دام النصر قد حالفه في المرحلة الأولى من مراحل الحرب العدوانية التي أقدم عليها .

ولكن سباستيانو كان مخطئا في ظنه ، وكان أبو عبد الله محمد المتوكل أيضا مغرورا بنفسه ، وكانت فرحة بياتريس البرتغالية سابقة لأوانها .

فقد أمد مولاي أبو مروان عبد الملك المعتصم ، لمواجهة الخطر الزاحف ، خطة مدروسة مرسومة بدقة وضعها بالاشتراك مع اثنين من نوابغ القواد في ذلك العصر : أولهما أخوه أبو العباس أحمد ، الذي أيدته ومآونه ومشى معه إلى الميادين منذ اللحظة الأولى التي هب فيها لأخذ العرش من ابن أخيه محمد ، والثاني قائد الفرسان «وضوان» وهو الأوربي التحق بخدمة السعديين بالمغرب وربط مصره بمصر عبد الملك المعتصم .

دارت رحى القتال بين الفريقين ، وتتابعت الأيام بين كر وفر ، وتنقل النصر من صف إلى صف ، ومن جيش إلى جيش ، ولكن الغزاة القادمين من الخارج ، وحلفاءهم من المغاربة أنصار السلطان الطريد محمد المتوكل ، لم يتمكنوا من التوغل في داخل البلاد ، ولم يستطيعوا الصمود إلا في المعاقل التي أنشأوها وحصنها وامتصوا فيها على طول الساحل .

وأخيرا ، قرر عبد الملك أن يضرب ضربة قوية أراد أن تكون القاضية ، فعهد إلى أخيه أبي العباس أحمد بأن يجمع له ما استطاع من رجال الحرب ومن معدات القتال ، وقصد على رأس جيش ضم كل قواته ، إلى حيث كان سباستيانو وحليفه محمد وأنصارهما يرابطون في السهل الممتد حول مدينة « القصر الكبير » .

يقول المؤرخون الأفرنج أن عدد المغاربة كان خمسين ألفا . ويقول

المؤرخون العرب ان عدد المغاربة كان فعلا خمسين الف مقاتل ، بينهم اربعة آلاف من الاوربيين الذين التحقوا بخدمة السلطان ، والفين من جنود المدفعية ، ولكن البرتغاليين وحلفاءهم كانوا مائة الف لا ثلاثين الفا فقط ، وكان بينهم بضعة آلاف من الفرسان ، وممهم ستة وثلاثون من المدافع الضخمة !

وصل عبد الملك المتصم الى سهل القصر الكبير ، فاذا به يجد جيش الاعداء مصطفا فيه استعدادا للقتال، على ضفاف نهرين يخرقان السهل من الغرب الى الشرق ، وقد احاط نفسه بسور من مركبات النقل وقصون الاشجار .

ولوجيء المتصم بمرض أقعده عن الحراك ، ومنعه من أن يتولى بنفسه قيادة المعركة ، ولكنه أمر بأن تصنع له محفة في داخلها قراش ووسائل . فكان له ما أراد ، واضطجع السلطان المريض في ذلك السرير المحمول على الاكتاف ، وأشرف منه على تطور الحالة لحظة بعد لحظة .

عهد الى اخيه ابي العباس احمد بأن يتولى القيادة مكانه ، فنشر احمد جيشه تجاه العدو ، وفاقا لخطة لم يرسمها من قبل بل استوحى تفصيلها من كيفية انتشار البرتغاليين وحلفائهم في السهل .

وكان المغاربة هم البادئين بالقتال . فقد صبوا نيران مدافعهم على جناحي العدو ، ثم أطلقوا فرسانهم لملاقاة فرسانه في الميدان .

كان ذلك في اليوم الرابع من شهر أغسطس سنة ١٥٧٨ ميلادية الموافقة لسنة ٩٨٦ هجرية وأشعة الشمس تسكب حرارتها من الجو فتتمزج بحرارة النيران المنبعثة من فوهات المدافع والبنادق والقذارات .

معركة رهيبة ، جرت فيها الدماء غزيرة من الجانبين ، وصبقت الأرض وحولت مياه النهرين الى اوحال قانية .

تضعفت صفوف الفرسان البرتغاليين فانطلقت خيولهم ترمح في السهل وعلى السفح على غير هدى ، وانطلقت في اثرها خيول المغاربة في مطاردة ارتوت فيها السيوف والرماح من الخوض في الصدور والنحور .

وجاء دور المشاة بعد دور الفرسان !

كان السلطان عبد الملك في محفته ، يفتح عينيه لحظة ، ثم يغمضهم .

منهولك القوى . ولكن امارات الغبطة والارتياح كانت مرسومة على وجهه بالرغم من الشحوب الذى عناه .

واقترب رضوان من المحفة لتحية السلطان بالنيابة عن أخيه احمد ، المنهمك فى اصدار أوامره الى الكتائب الزاحفة لتطويق العدو .

واذا بالقائد يتراجع ، ويسدل ستائر المحفة ، وينادى أربعة من حراسه ، وبأمرهم بأن يسهروا على راحة السلطان ولا يسمحوا لأحد بأن يرفع الستائر عن المحفة .

كان السلطان عبد الملك فى الواقع قد أسلم الروح !

مات والمركة محتدمة . وأراد رضوان أن يخفى الخبر عن الجيش فصاح بأعلى صوته ، وأمر مساعديه بأن يطلقوا الصيحة مثله : « أن مولاي عبد الملك المعتصم يأمر الجيش بالرحف ، والقاء العدو فى مياه النهرين ! »

وهجم الجيش المغربى . وضرب ضربته القاضية بقياة ابن العباس احمد ، ومعاونيه رضوان .

وتشتت الإعداء فقتل معظمهم ، وفر القليلون الباقون على قيد الحياة ، وهم لا يلوون على شيء .

كان النصر تاما كاملا شاملا !

ولكن الموت حصد فى تلك المركة دعوسر الذين أعدوا المجزرة !

مات أبو مروان عبد الملك المعتصم فى محفته ، قبل أن ينتهى القتال !

وشرق أبو عبد الله محمد المتوكل ، وهو يجتاز النهر سباحة طلبا للنجاة من الأسر أو من الموت فى الميدان !

وكان هذا أيضا مصير حليفه الملك سباسانيانو البرتغالى ، الذى جرفه التيار فغرق مثل السلطان الطريد .

وكانت بياتريس البرتغالية قد اشتركت فى أنتال بجانب صديقها المغربى ، وملك بلاده البرتغالى ، فحاولت أن تنقل الحليفين من الفرق ، ولكنها غرقت مثلهما .

ولما غابت الشمس وراء الأفق ، وبدأ الليل يسدل ستره على  
الميدان الرهيب ، كان كل شيء قد انتهى .

الجيش البرتغالي لم يبق له أثر !

وحلفاؤه المغاربة أنصار المتوكل القوا سلاحهم وطلبوا الأمان !

وجيش المغرب أصبح في وسعه أن يسترد في بضعة أيام ما كان  
البرتغاليون قد استولوا عليه من ثغور المملكة .

وأبو العباس أحمد أصبح جديرا بأن يلقب بالقائد « المنصور » وبأن  
ينادى به سلطانا خلفا لأخيه .

وهذا ما حدث ؟

وعرفت تلك المعركة باسم « معركة القصر الكبير » لأنها وقعت على  
مقربة من هذه المدينة . وعرفت أيضا باسم « معركة الملوك الثلاثة » لأن  
الموت اختطف في أثناء المعركة أبطالها الثلاثة : السلطان الطريد محمد  
المتوكل ، والسلطان المريض المعتصم ، والملك الغريب سباستيانو .

والرابع هو الذي خرج حيا من المعركة ، فاعتلى عرش المغرب ،  
وعرف باسم مولاى أبى العباس أحمد المنصور ، ولقب أيضا بالدهيب ،  
وحكم المغرب خمسا وعشرين سنة ، وكان عهده مفعما بالخير والرخاء  
والمجد .

بعد انتهاء المعركة ، أمر القائد المنصور أبو العباس أحمد بأن تنقل  
جثة أخيه عبد الملك لتدفن في مشهد لائق بمقامه . وأن تنقل جثة ابن  
عمه محمد المتوكل وتسلم لأنصاره لكي يواروها الضريح حيث يريدون .  
وأن تسلم جثة الملك سباستيانو الى ذويه ورعاياه ، ليحملوها الى حيث  
يشاءون .

أما جثة بياتريس ، فقد وقف أمامها القائد مندهشا ، وتسائل  
من أين جاءت هذه المرأة ، ومن الذى جاء بها ، وما حملها على خوض  
فमार المعركة بين صفوف الرجال .

وما وقع عليها نظر رضوان ، قائد الفرسان الأودبي الذى امتنق  
الاسلام ودخل في خدمة سلاطين العرب حتى امتقم وجهه ، واغرورت  
عيناه بالدموع .

خطا خطوتين نحو الجنة الممددة على الارض ، ثم ركع أمامهـ  
وكتبته ...

واقترب منه أبو العباس ، وربت على كتفه ، ونظر الرجلان ا  
منهما الى الآخر ، فقرأ رضوان فى عينى رئيسه علامة استفهام .  
قالا :

ـ هذه بياتريس ... زوجتى ! ..

.. هجرتها منذ أن هجرت بلادى ... وكنت أعرف انها  
أسيرة فى أيدي المغاربة ، وانها ربطت مصيرها بمصير المتوكل ... و  
الآن لماذا لجأ الرجل الى الملك سياستيانو ، ومن الذى حرض الاثنى  
غزو المغرب ... لقد فعلت بياتريس ذلك لسببين : أرادت أن تنقذ الما  
لأنها أحبته ، وأرادت أن تنتقم منى لاني هجرتها ! ...

ولم يكن رضوان مخطئا : فقد أصغت بيساتريس لصوت اله  
وأصغت لصوت الحقد ... ومات حبها وحقدما معها فى معركة  
الثلاثة ، بالقرب من القصر الكبير !

# القصص الأشرب



قصة اللون التي ابتكره  
الطبيعة ، وقلعه أرباب الصناعة  
العرب ، وحصل اسم أميرة  
الفرنجية !





كان الحديث مشعباً بالمحبة والاحترام المتبادلين ، بين ايزابيلا  
الاسبانية ومامة العربية ، أمام تلك النافذة المطلة على حدائق قصر  
اسكوريال ، مقر ملوك أسبانيا الرايض بين الجبال الوعرة ، على مسافة  
غير بعيدة من العاصمة مدريد .

وكان محور الحديث رغبة ايزابيلا في أن تصبحها ممامة الى ديار  
الغربه ...

- رأيتك في المنام أيتها العزيزة ... كنا معا على ظهر سفينة تتهادى  
بنا على صفحة الماء ، في طريقها الى الشمال ، الى بلاد «الارض المنخفضة»  
مقر اقامتي من الآن فصاعداً ... فلا تكذبى الحلم الذى ما هو فى الواقع  
غير أمنية يختلج بها صدرى ... لم أرفض لك رجاء منذ اليوم الذى  
عرفتك فيه ... فلا ترفضى لى اليوم هذا الرجاء ...

ترددت ممامة فى يادى الامر ، وتوجست خيفة من الرحيل عن بلد  
ولدت ونشأت فيه ، الى بلد غريب لا تعرفه ، ولا أهل لها فيه ولا أصدقاء .

ولكن ترددها لم يطل . فالعوامل التى تفرض عليها القبول ، أقوى  
بكثير من العامل الذى يوحى اليها بالرفض

ان ايزابيلا، ابنة الملك فيليب الثانى ، قد أصبحت زوجة للارشيديو  
البيرت ، ابن امبراطور النمسا مكسيميليان الثالث ، الذى حله البابا من  
قسمه الكهنوتى كاسقف وكاردينال ، وأجاز له أن يتزوج ويضطلع  
بواجبات المنصب الذى عهد به اليه فيليب الاسباني ، كحاكم للارض  
المنخفضة التابعة لاسبانيا ، والتى قدمها الملك هدية عرش لابنته المحبوبة .

أما تعلق الاميرة ايزابيلا بالمرأة العربية ، فسببه أن ممامة عالجتها  
من مرض خطير بدواء مصنوع من الاعشاب ، فشفيبت المريضة ، واستولى  
على قلبها العرفان بالجميل ، فأصبحت لا تطيق أن تبتعد عنها « الطبيبة »  
كما كانت تسمى ممامة ، وراحت تغنى عليها النعم والمطايا بلا حساب .

ولهذا ، فقد تنفست الصعداء لما أجابتها صديقتها الى ما طلبته

منها ، وتمهنت لها بأن ترافقها الى مقر اقامتها الجديد ، بعيدا عن وطنها الاسباني . وقالت لها أنها وافقة أن .بأها - وهو ولي أمرها - لن يعارض في سفرها ، بالرغم من الظروف الخاصة التي تعيش فيها أسرته العربية في الأرض الاسبانية .

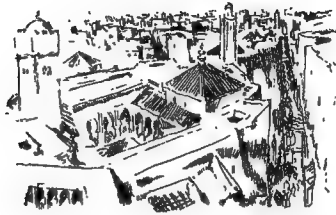
فيما عاينة ابنة «يوسف الصباغ» من أم آسبانية . وأبوها حفيد «صالح الصباغ» من نصارى دمشق . وهو الذي ورث عن أسلافه ثروة كبيرة ، وأخذ عنهم الاتقان والدقة في دباغة الجلود وصبغة الأقمشة والأنسجة ، وهي صناعة راجت وازدهرت على أيدي أفراد الأسرة الشامية في الاندلس، وعلى الخصوص في مدينة غرناطة حيث استقر الجد الأكبر لآل «الصباغ» وأول من حمل هذا الاسم المستمد من صناعته .

لما انتهى الحكم العربي بالاندلس ، في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، وأوائل القرن العاشر الهجري ، ونزحت عن «الفردوس المفقود» جموع الشعب المغلوب على أمره ، واجتازت البحر الى ديار المغرب ، مع الملك أبي عبد الله محمد ، عم الملك فرديناندو الذي آل اليه الحكم في أسبانيا كلها ، الى منع فريق كبير من أرباب الصناعات المختلفة ، من الرحيل مع الهاربين . وكان آل الصباغ من هذا الفريق . وبقي معهم في غرناطة آل «البيطار» وهم من أسرة نصرانية أصلها من بيت المقدس ، وآل «العواد» وهم من مسلمي حلب الذين توارثوا العزف على العود والقانون واستوطنوا الاندلس قبل الكارثة بقرن أو أكثر .

ومرت الاعوام . وتطورت الأحوال ، وكان الحكام الاسبانيون . يعاملون العرب بالقسوة حيناً ، وبالحلن حيناً ، وكان العرب يخلدون الى السكينة أو يثورون على الاوضاع الجديدة ، حسبما تكون المعاملة التي يلقونها من أولياء الأمر حسنة أو سيئة .

وفي أواخر حكم فيليب الثاني ، كان يوسف الصباغ عميد أسرته ، التي ظلت تمارس صناعتها . أما أسرة «العواد» فلم يبق منها غير واحد هو عامر .العواد ، الذي اعتزل الفناء والعزف ، وشارك صديقه يوسف في صناعته .

وتزوج الصباغ فتاة أسبانية رزق منها ابنتين ، ماتت احدهما في سن الطفولة ، وتزوجت الثانية ، وهي يمامة الشاب حمدان «البيطار» . آخر من كان باقيا على قيد الحياة من الأسرة التي اشتهرت بتربية الخيول ونرويضها . وقد مات حمدان بعد زواجه ببضعة شهور ، فانقرضت



فلس : الدم المواسم بالقرب

أسرته ، وعادت زوجته يمامة الى بيت أبيها • ولا ماتت أمها الاسبانية ،  
كرست نفسها للعناية بذلك الاب الذى أفرغ فيها حبه وحنانه •

وكانت يمامة قد تعلمت من زوجها طبيب الخيول ، اعداد وصفات  
عربية من مختلف أنواع النباتات ، ثبت لحمدان البيطار انها تشفى من  
آن واحد من بعض أمراض الحيوان والانسان على السواء • فصارت المرأة  
نعالج بها من يلجأ اليها من المرضى ، وبدون مقابل ، لا فرق عندها بين  
عربي وأسباني • وذاعت شهرة «الطبيبة» العربية فى غرناطة وفى غيرها  
من المدن الاسبانية ، التى كان لأبيها وشريكه فيها فروع للدباغة  
والصبغة ، والتقى كانت تتردد عليها ممهما من وقت الى آخر ...

وطرقت تلك الشهرة أبواب القصور الملكية •

أصيبت الاميرة ايزابيلا ، ابنة الملك فيليب الثانى ، بذلك المرض  
المجهول الذى حار الأطباء فى تصويره وعلاجه ، فهمست فى أذن المريضة  
احدى الوصيفات قائلة :

— لماذا لا تستدعى مولاتى الطبيبة العربية يمامة وهى اليوم تقيم  
فى المدينة ؟

والمريض اليأس يتعلق بحبال الامل !

دخلت يمامة قصر الملك • ولقيت ايزابيلا الشفاء على يدها • وكان  
ذلك هو الخيط الاول فى نسج الصداقة التى حاكتها الايام بين المراتين :

الاميرة الاسبانية البسالة من العمر ثلاثين عاما ، والطبيبة العربية التي اتفق ان كانت في هذا العمر أيضا .

ومضت سنتان ، لم تسمح ايزابيلا في خلالها لصديقتها بأن تغادر العاصمة ، بل خصتها بحجرة في القصر الذي تقيم فيه ، وكانت تصر على أن ينزل أبوها أيضا ضيفا عليها ، اذا ما أراد أن يزور ابنته .

وفي سنة ١٥٩٨ ميلادية الموافقة لسنة ١٠٠٧ هجرية ، قرر الملك فيليب الثاني أن يتم ذلك الزواج السياسي بين الابنة التي يخصها بحبه ، والأمير الذي اعلم ليكون حاكما وملكا ، البيرت النمساوي .

وهال ايزابيلا أن تفترق عن صديقتها العربية فالتحت عليها بأن ترافقها الى الارض المنخفضة ، ولم تمنع يسامة في النزول عند رغبة العروس .

الاضطراب يعم البلاد التي ذهب البيوت وزوجته ايزابيلا ليتسلما مقاليد الحكم فيها ، وهي تشمل هولندا وبلجيكا وجزءا من اقاليم فرنسا الشمالية الغربية . فاضطرا الى خوض غمار حرب دامية ، واجها فيها الجيش الفرنسي من ناحية ، وقوات الامراء المحليين من ناحية أخرى .

ومات فيليب الثاني في السنة التي تزوجت فيها ابنته الارشيدوقة ، وخلفه ابنه فيليب الثالث ، فاقر أخته وزوجها على ولايتهما ، ووافاهما بالتجندات المتوالية ، فوسعا شقة الحرب ، وكان آلبيرت يقسود جيوشه بنفسه ، فذاق ثموة النصر ومرارة الهزيمة ، ولكنه عرف كيف يقطع ثمرة النصر ، وكيف يتجنب اليأس بعد الهزيمة .

وظلت ايزابيلا ملازمة له ، في السراء والضراء ، ترافقه الى ميادين القتال ، وتسهر على راحته ، وتعنى بصحته . وظلت يمامة أيضا ملازمة لصديقتها مثل ظلها ، وكثيرا ما كانت الطبيبة العربية تستخدم وصفاتها وعقاقيرها لمعالجة الجرحى والمرضى من أولئك الاغراب الذين أرادت لها الاقدار أن تعيش بينهم .

كانت مدينة « أوستاند » أمنع المعاقل الحصينة التي لابد من الاستيلاء عليها ، لكي يستتب الأمر للارشيدوق وزوجته . فحضر عليها البيوت المصارع من الجهات الاربع وأقسم أمام قواد جيشه على ألا يرتد عنها قبل أن تسقط في قبضته ...

وأضاف الى هذا القسم المألوف بين الغزاة والفاحين ، قسما آخر جاء فريدا في نوعه وشكله . فقال لزوجته على مسمع من معاونيه :

— ايزابيللا ... احفظي ثيابي في صندوق محكم الاقفال ... فاني اقسم الآن امام الله والناس ألا أنزع القميص الذي على جسدي والبس قميصا غيره ، الا بعد أن أدخل هذه المدينة منصورا وأغير ثيابي في قصر الحاكم ! ..

واستغرق حصار اوستاند ثلاثة أعوام !

وتمسك البيرت بقسمه المزدوج .. لم يرفع الحصار عن المدينة ، بل ضيق عليها يوما بعد يوم ، ولم تستطع زوجته اقتناعه باستبدال قميصه !

ولما اقتحم جيشه أسوار اوستاند ، واستولى على المدينة العاصية ، نزع الارشيدوق قميصه عن جسده ، وقال لايزابيللا :

— الى الآن بقميص آخر !

بعد ثلاثة أعوام على الفوه بالقسم وعلى بدء الحصار ، تفر لوزن القميص : كان ناصع البياض ، فأصبح ذا لون أشهب ، من كثرة ما علق به من غبار وتراب وعرق ودخان . ولم تمرقه ايزابيللا ، ولم تفسله من قدراته ، بل احتفظت به كما هو ، وقالت لزوجها :

— سيكون هذا القميص أيها الحبيب أعز تذكاري عندي لهذا النصر الذي أحرزته في اوستاند . أما هذا اللون الغريب الذي اصطبغ به خلال الحصار ، فاني أتبتناه وأريد أن يعرف في مستقبل الأيام باسم « ايزابيللا » !

وفي مساء ذلك اليوم ، في سنة ١٦٠٤ للميلاد ، الموافقة لسنة ١٠١٣ للهجرة عادت الاميرة الاسبانية الى التحلث مع صديقتها العربية عن الماضي وذكريات الأيام كسابقة ، تحت سماء الاندلس .

وتلاطمت الشجون في صدر يمامة ، واستبد بها الشوق الى البلد الذي رأت فيه النور ، والحنين الى الاسرة التي طالبت غيبتها عنها ، فنفرت الدموع من عينيها ، بالرغم منها .

وأدركت ايزابيللا ماتعانيه العربية من الآلم نفسية ، فقالت لها :

— يمامة ... لن أفرض عليك البقاء معنا بعد اليوم ، فقد جلبت

لى الحظ كما كنت أرجو ، ولابد أن يخيم السلام على هذا البلد ، بعد  
أن تحققت آمالنا وتم لنا النصر فى هذه الحرب .. أتريدين العودة الى  
الأندلس ؟

— نعم .. إذا كنت تسمحين .

— يمامة .. أنت عنوان المحبة والوفاء .. لقد رجوتك بأن تأتى  
معى الى هنا . فجنث والآن ، أرجوك أن تعودى الى أهلك وذويك ،  
وساوفر لك جميع أسباب الراحة فى الطريق .. ولكن لى رجاء آخر ،  
هو فى الحقيقة مهمة أرغب فى أن أكلفك بها ، لدى أبيك الطبيب ، الذى  
حرم نفسه من ابنته ، كيلا أحرم أنا من صديقتى .

— أنا طوع امرى .

— خذى هذا القميص الأشهب ، الذى سيعرف باسم «إيزابيلا»  
وقولى ليوسف الصباغ وشريكه عامر ، اننى أرغب اليهما فى ادخال هذا  
اللون الجديد بين الالوان التى يصبغان بها الاقمشة والانسجة ، فإن أمنيتى  
بعد الآن أن ينتشر هذا اللون بين الناس ، ويعم اسبانيا والارض المنخفضة  
وكل بلد ترفرف عليه أعلام أخى الملك وزوجى الارشيدوق .

— سأحقق لك هذه الامنية ، أيتها الاميرة العزيزة ، وآمل أن تحققي  
أنت الامنية التى تقابلها فى صدر يمامة التى أحبتك وأخلصت لك .

— سأحققها ، أيا كانت هذه الامنية .

— أريد منك أن تكونى واسطة خير بين أخيك الملك ، وبين أسرنا ،  
اننى أعرف أن أبى وشريكه عامر يرغبان فى الرحيل عن اسبانيا ، واتخاذ  
بلاد المغرب الاقصى وطننا لهما .

— سأطلب من أخى فيليب أن لا يمانع فى ذلك .

فأخذت يمامة القميص الأشهب ، وتعاقت الصديقتان ، وكان  
الفراق أليما شديداً الوقع على المرأتين الوفيقتين .

فى غرناطة ، حيث والدت يمامة اباهما بعد غياب دام أكثر من ستة  
أعوام بذل يوسف الصباغ جهده وبراعته فى تكييف صباغة الكتان باللون  
الأشهب «الايزابيلى» المطابق للون القميص الذى حملته ابنته معها ،  
فجاءت النتيجة محققة لامنية ايزابيلا الى غمرها الفرح يوم تلقت القطعة  
الاولى من النسيج الفاخر المصبوغ باللون الذى يحمل اسمها .

وأقبل الناس على شراء الكتان الأشهب ، فانتشر في أنحاء اسبانيا  
وبلاد الأرض المنخفضة ، ولحق يوسف الصباغ فيه ، وأقصى بصر مهنته ،  
إلى بعض أصدقائه من العرب والاسبانيين المشتغلين في صناعته .

وفي سنة ١٦٠٦ ، رحل الشريكان ، يوسف وعامر ، إلى بلاد المغرب  
واستقرا في مدينة «القصر الكبير» حيث التقيا بكثيرين من العرب النازحين  
من اسبانيا ، وكان ذلك في عهد الشرفاء السعديين .

وانشأ الرجلان هناك صناعة جديدة ، وأدخلا على أشكال الصباغة  
والدباغة ألوانا غير مألوفة ، ومن بينها اللون الأشهب الازبيلي ، الذي  
أطلق عليه الناس فيما بعد اسم «اللون السوسني» .

كان يوسف الصباغ قد جاوز السبعين من العمر ، وكان شريكه  
عامر العواد أصغر منه بعشرين سنة أو أكثر .

وقال يوسف لصامر ، في مساء يوم ممطر ، وهما يرتشفان ماء  
النعناع الذي أعدته لهما يمامة :

— يا عامر .. أشعر بدنو أجل .. وستكون انت الوارث لجميع  
أسرار المهنة التي اشتهرت بها أسرتي ، واستمكنت منها اسمها ، أما ثروتى  
فانها عائدة إلى ابنتى الوحيدة ، وهى البقية الباقية من هذه الأسرة .

فكانت يمامة ، محاولة أن تبديد الأفكار السوداء التى تساور أباهما :

— سوف تعيش طويلا يا أبى ، وسوف تشملنا بركاتك أعواما  
عديدة أخرى .

— لا يا ابنتى .. إن الأعمار بيد الله .. والأجل أصبح قريبا ..  
وسأرحل مطمئنا عن هذا العالم ، لو تحققت لى من الآن أمنية ليست وليدة  
هذه الساعة ، بل يرجع منشأها إلى اليوم الذى أصبح فيه عامر وحيدا  
فى هذه الدنيا ، بعد وفاة زوجته ، منذ ثلاثة أعوام .

أدرك الشريك ، وأدركت الابنة ، ماذا يعنى يوسف الصباغ بهذه  
العبوات .

وتحققت أمنية الشيخ الذى عاش سنواته الأخيرة مطمئن البال قريبا  
«العين» ، فى بيت واحد مع ابنته يمامة وزوجها عامر العواد .

واتسعت صناعة الصباغة وازدهرت ازدهارا بعد موته ، وأصبح

اللون الأشهب «الايزابيلي» كما كان يسمى في اسبانيا ، والأشهب «الموسني» كما كان يسمى في بلاد العرب المغاربة والمشاركة ، من الألوان الرائجة التي يقبل عليها الرجال والنساء على السواء ، وظلت يمامة الطيبية العربية ، توافي صديقتها الاسبانية ايزابيلا بالكتان المصبوغ باللون الذي تحبه ، حتى وافاها الأجل في عام ١٦٣٣ ، وكان زوجها ألبيرت قد سبقها الى العالم الآخر ، في عام ١٦٢١ .

أما عامر العواد وزوجته يمامة بنت الصباغ ، فقد رزقا ذرية حافظت على صناعاتهما واتقانهما وسمعتها ، أعواما عديدة في مدينتي القصر الكبير وفاس ، بالمغرب الأقصى ، وفي الديار المصرية والشامية .



# مرتتا .. سلطانة المغرب

---

كان مواطنوها يسمونها  
« المغربية » والمغاربة يسمونها  
« الأفرنجية » ، ولقد خلعت  
الوطن الذي تبناها بأمانة  
وأخلاص



كان الجنرال «جورجو» رفيقا لنا بليون الاول في منفاه بجزيرة «سانت هيلين» ، وقد نقل في مذكراته العبارة الآتية عن لسان الامبراطور «المظي نسيم» : (كانت سلطنة المغرب في ذلك الوقت فرنسية من جزيرة كورسيكا . وقد جاء اخوها ( فرانشيسكي ) الى باريس وعرض على وزير الشؤون الخارجية أن يسافر الى المغرب ويعمل لمصلحة فرنسا . فاعتقدت في بادئ الامر أن في المسألة نصبا واحتيالا ، ولكن الوزير ثبت من الحقيقة فاعطيته ثلاثين ألف فرنك لهذا الغرض . وقد كللت المفاوضات بالنجاح ، وبسط امبراطور المغرب حمايته على الفرنسيين هناك وأسدى اليها خدمات جليلة . فأرسلت اليه هدايا بنصف مليون فرنك .

هذا ما قاله الامبراطور الفرنسي للقائد الذي عاش معه في المنفى . فمن هي تلك السلطنة الفرنسية التي تحدث عنها ، والتي ولدت مثله في جزيرة كورسيكا ؟

اسمها «مرتة فرانشيسكي» واسم أبيها «جاك ماري» وهو من سلالة الكونت فرانشيسكو كولونا ، النبيل الرومانى الذى استوطن جزيرة كورسيكا سنة ١٥٠٠ . وقد ولدت مرتة في ٢ من يونيو سنة ١٧٥٦ ببلدة كوربارا الصغيرة ، الرابضة بين الصنخور على سفح جبل يشرف على البحر .

وكان البحر في ذلك الوقت مسرحا لاعمال القراصنة ، يتبارى فيه القراصنة المنطلقون من موانئ إيطاليا وفرنسا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى ، وكانت جزيرة كورسيكا عرضة لفتوات القراصنة من العرب والبربر ، الذين كانوا ينزلون على شواطئها ، ويسبون النساء والبنات والشبان ، ويبيعونهم فى أسواق الرقيق جريا على العادة المتبعة فى ذلك العهد ، حيث لم يكن الرق قد أُلغى بعد ، وحيث كان الانسان يستعبد الانسان ، والشعوب تستعبد الشعوب .

وحدث ذات يوم أن حبطت أسيرة فرانشيسكي من بلدتها الى شاطئ البحر فى نزعة مسائية ، فداهمها القراصنة وخطفوها وحملوها الى

سفينتهم قبل أن يتمكن رجال البلدة من نجاتها ، فوقفوا على الشاطئ  
ينظرون الى السفينة تبتعد وعليها جاك ماريا وزوجته وولدها فتشنتى  
وأوغستينو وابنته مرتا الصغيرة .

وانقطعت اخبار الاسرة بضعة أعوام .

وفجأة عاد الرجل والزوجة والولدان الى كورسيكا ، فرحب بهم  
أهل البلدة ، وسألهم بلهفة عن مصير الطفلة مرتا ، فقص عليهم جاك  
ماريا قصته قال :

« ذهب بنا القراصنة الى تونس حيث عرضونا للبيع فى سوق  
الرقيق ، فكان من حسن الحظ أن ابتاعنا احد وكلاء الباي فاقمنا جميعا  
فى قصره ، وعوملنا معاملة حسنة ، ولكننا كنا فى عداد الاسرى الارقاء ،  
نقوم بالأعمال التى يعهد اليها بنا ، ونبكي الحرية الغالية والوطن المفقود .  
ولم يكن بوسعنا أن نفكر فى الهرب لتعذر وسائله ولشدة الرقابة عند  
منافذ المدينة وعلى شاطئه البحر ، فرضتنا لحكم القدر وبقنا ننتظر الخلاص  
من الرب القادر على كل شيء !

« قضينا فى الأسر والمبودية ثلاثة أعوام ، كنت فى خلالها قد  
انصرفت الى دراسة اللغة العربية فأتقنتها قراءة وكتابة ، وكان الله قد  
استمع الى صلواتنا ، فقدر لى أن أطلع مصادفة على سر مؤامرة دبرها  
فريق من الضباط والجنود لاغتيال سيد البلاد ، واسمه سيدى على باى ،  
فأفضيت اليه بما علمت من أخبار الخائمين ، وكنت سببا فى انقاذ حياته ،  
فأعنى على العطايا والنعيم ، وأعاد الى حريى ، وأمر بأن تمهد لى سبل  
العودة الى بلادى .

« تنفسنا جميعا الصعداء ، وأسرعت الى الميناء فاستأجرت سفينة  
صغيرة وخمسة من البحارة ، وركبت مع الاسرة وانطلقت بنا السفينة  
ميممة شطر جزيرتنا المحبوبة ا غير أن كارثة جديدة حلت بنا ، لا تقل  
شدة من الكارثة السابقة ، فقد هاجم القراصنة المفاربة سفينتنا وهى فى  
عرض البحر ، وعلى مرمى النظر من ساحل كورسيكا ، فقتلوا رجالها ،

وأضرموا فيها النار ، وحملونا نحن الى سفينتهم ، وعادوا بنا الى  
بلادهم حيث عرضونا مرة ثانية للبيع فى سوق الرقيق !

« وكنا فى هذه المرة من نصيب أمير مغربى واسع الثراء والجاه ..  
لم يشأ أن يفرق بيننا فاشتري الاسرة كلها دفعة واحدة ، كما فعل وكيل



« الرس » او ريان السفينة  
 كما يراه الرسام وولفجانج في القرن  
 السابع عشر

البأى من قبل • وهكذا شاءت الاقدار التى أنقذتنا من الاسر والعبودية  
 فى تونس ، أن تعيدنا اليهما فى المغرب ، قبل أن نتمتع بنسيم الحرية ،  
 وبدون أن تكتحل عيوننا برؤية الوطن العزيز !  
 « ولكننى جعلت أفكر فى الخلاص منذ اللحظة التى وطئت فيها  
 اقدامنا ارض المغرب • وخطر لى فى الحال خاطر وضعته بلا ابطاء موضع  
 التنفيذ فكتبت رسالة باللغة العربية الى سلطان المغرب مولاي محمد ،  
 رويت له فيها ما حدث لى فى تونس ، وكيف انقلت حياة البأى  
 من كيد المتآمرين ، وطلبت أن ينظر الى والى أسرتى التى تصحبنى بعض

العطف والتقدير . فرق السلطان لحالنا ، وأبدى رغبته فى رؤيتنـه  
فذهبنـا اليه فى قصره ومعنا السيد المربى الذى اشتـرانا ، وبعد أن ثبت  
للسلطان أننا لم نكنـب فيما ادعيت ، أمر بأن يطلق سراحنا ، وأن توضع  
تحت تصرفنا سفينة من سفنه ، تحملنا الى كورسيكا فى حراسة كافية  
تضمن سلامتنا ، وتمنع وقوعنا فى أسر القراصنة مرة ثالثة !

«غير أن شيتا واحدا نقص علينا ما شمرنا به من فرح واطمئنان :  
فقد استرعت ابنتى مرتا ، وهى اليوم فى الثالثة عشرة من العمر، أنظار  
السلطان بجمالها الباهر وشبابها الفضى ، فرغب فى الاحتفاظ بها فى  
قصره بين نسائه وجواريه ، قائلا لى انه سيجعل منها سيدة البلاد الأولى.  
ويرفعها الى أوج المل والسمعة والهناء» .

سكت جاك ماريا لحظة ، وترقرقت الدموع فى عينيه ، ثم استطرده  
قائلا :

« ولهذا أيها المواطنون والاصدقاء ، فافكم تروننى عائدا الآن اليكم  
مع زوجتى وولدى ، محملين بالتحف والاموال والارزاق ، لكنكم لا ترون  
معنا تلك الابنة الحبيبة ، التى اضطررنا الى التخل عنها هناك ، والتى  
أرجو أن لا تطول غيبتها علينا » .

لم تطلق الأسرة صبرا على هذا الفراق . وما مرت شهور على عودته  
جاك ماريا الى بلدته كوربارا ، حتى راح يعد العدة للقيام بمغامرة خطيرة.  
لانتقاذ ابنته وانتزاعها من قصر السلطان بمدينة فاس . فجمع حوله فريقا  
من الجبيليين الأشداء وجهز سفينة أقلعت به وبرفاقه الى المغرب ، فاجتازت  
البحر بدون أن يلحق بها سوء ، وبلغت بالسلامة ساحل المغرب ، ولكن  
الحظ العائر أراد للكورسيكيين أن يصلوا الى «رباط الفتح» فى الوقت  
الذى كان فيه وباء الطاعون متفشيا فى البلاد ، فاصيب جاك ماريا  
بالمرض فى أول يونيو سنة ١٧٧٠ ميلادية الموافقة لسنة ١١٨٤ هجرية  
وهروا لرفاقه مسرعين الى سفينتهم وعادوا بها الى جزيرتهم خائبين .

ومرت الاعوام بدون أن يتسرب الى كورسيكا لا كثير ولا قليل من  
أخبار الفتاة المقيمة فى قصر السلطان مولاي محمد بفاس . وعبتا حاول  
أخواها وإمها الاتصال بها بواسطة القناصل والتجار واصحاب السفن  
فقطعت الأسرة كل أمل فى لقاء الابنة التى كان سكان القرية يسعون بها  
«المغربية» فى حين أن المخاربة كانوا يسمونها «الافرنجية» .

ولكن مرنا لم نياس من الاتصال بأهلها وعشيرتها . ففي سنة ١٧٨٦ ميلادية . الموافقة لسنة ١٢٠٠ هجرية رست في ميناء كالفي على معربة من بلدة كوربارا ، فافلة من السفن المغربية نزل منها جماعة من الامراء العرب ، يتبعهم حراس مسلحون ، وعبيد يحملون عشرات من الصناديق والاكياس : تلك هي البعثة التي أوفدها مرنا فرانثسكييني «سلطانة المغرب» الى بلدها ، بأمر من زوجها السلطان مولاي محمد بن عبد الله الحسني !

وعلم سكان جزيرة كورسيكا بما كانوا يجهلون ، وقص عليهم رجال البعثة قصة الفتاة التي ملكت قلب مولاهم فاجلسها على العرش ، وجعلها موضع ثقته ، واتخذها زوجة وصديقة ومستشارة مسموعة الكلمة نافذة الرأي !

ما الذي حدث لمرتا بعد فراقها عن أبيها وأميها وأخويها في مدينة فاس ، وهي بعد في الثالثة عشرة من العمر ؟

لقيت الفتاة حظوة في عيني السلطان ، وما مضت ثلاثة أعوام على دخولها القصر حتى كان مولاي محمد قد بر بوعده لأبويها وأخويها ، فجعل منها سيدة النساء في حرمه ، واتخذها زوجة له ، وأحلبها في نفسه المنزلة الاولى .

كان مولاي محمد قد خلف أباه مولاي عبد الله على عرش المغرب في سنة ١٧٥٧ ميلادية ، الموافقة لسنة ١١٧٠ هجرية فمرت البلاد في أيامه عهد رخاء وطمأنينة وسعة نفوذ . فقد عقد ذلك العاهل العظيم معاهدات صداقة وتعاون مع بعض الدول الاوربية ، وجلب الى عاصمته ملكة لفيقا من الخبراء الاوربيين الذين هجروا بلادهم واتخذوا المغرب موطنهم والاسلام دينهم ، فاستعان بهم لتحقيق طائفة من الإصلاحات في جميع مرافق الحياة ، وكان يتبادل الرسائل والوفود والهبات مع الملوك والبابا في الشرق والغرب ، وكانت زوجته السلطانة مرنا تتولى كتابة الرسائل اليهم ، والرد على خطاباتهم ، وتقضى الى زوجها بأرائها الصائبة في كل كبيرة وصغيرة من شئون الدولة ، فازداد إعجابه بها ، وتضاعف حبه لها .

وظلت مرنا تحدث السلطان عن أهلها وبلدها ، فأراد في النها - أن يستجيب لرغباتها ، وأمر بأن توفد الى كورسيكا بعثة تتولى الب

عن أسرة فرانكسكيثي في كوربارا ، ونأتي بها الى المغرب اذا شأنت ،  
بعد استئذان لويس السادس عشر ملك فرنسا في ذلك الوقت .

تلك هي البعثة التي وصلت في قافلة من السفن المغربية الى نجر  
كانفي ، واطلعت سكان الجزيرة على حقيقة ما حدث للطفلة التي افتقدوها  
منذ أعوام .

وكتبت مرثا الى ملك فرنسا تنبئه بسفر البعثة الى كورمسيكا ،  
فاهتم لويس السادس عشر بالامر ، وبعد بضعة أسابيع من وصول  
الرسول المغاربة الى كوربارا ، غادروا ميناء كالفى في سفنهم ، وقد انضمت  
اليها سفن فرنسية أخرى ، تحمل أسرة فرانكسكيثي ورهطا من سكان  
الجزيرة ، الى بلاد المغرب .

وأمر مولاي محمد بأن تفتح أبواب قصره للوافدين من موطن زوجته  
المحبوبة ، فاصطف الحرس الاسود في طريق القصر ، وحيا الضيوف  
بقصر الطبول والنفخ بالابواق ، واستقبل السلطان في الفخ ردهات القصر  
أم زوجته واخويها ، وكان اللقاء مؤثرا ، فالقت مرثا بنفسها بين ذراعي  
أُمها التي لم تعرفها لأول وهلة ، واستأذنت زوجها في أن تقبل الأخوين .  
الذين افترقت عنهما وهما في مقتبل العمر ، وحلت الأسرة في جناح من  
القصر ، وقد شمرها الفرح واكتنفها السعادة !

وكانت السلطانة الفرنسية قد رزقت بنتا سميتها أيضا « مرثا »  
وعلمت النفس بأن ترزق ابنا قد يخلف أباه على العرش . لكن هذا الامل  
لم يتحقق ، فحصر السلطان وراثة العرش في ابنه الأكبر يزيد ، الذي  
رزقه من امرأة أيرلندية كان أبوها قد اعتنق الاسلام واستوطن المغرب

وكان يزيد يكره زوجة أبيه الكورسيكية ويكيد لها في الخفاء ، بل  
كان يكيد لابنيه ويتآمر عليه ويسعى لانتزاع الملك منه قبل موته ، وبلغ  
البحرود بهذا الابن العاق ان رفع راية العصيان وجمع انصاره في الجبال ،  
فقرر مولاي محمد ان يماقيه على غروره ، ويقضي على نورته في مهدها .  
فحتمد جيشا من حرسه الخاص وتاهب للزحف بنفسه على مقر الابن الثائر  
ولكن يدا خفية دست له السم في الطعام ، ففصر السلطان بأن ساعته  
قد دنت ، ودعا زوجته المختارة اليه ، وهمس في أذنها قائلا :

« مرثا .. لقد أحببتك واخلفت لك بقرت ما أحببتني وأخلفتني لي  
ولك الآن ان تعودى الى أهلِكَ اذا شئت ، أو أن تبقى في هذا البلد



المضياف معزة مكرمة .. ولكن احذرى يزيدا فقد يدس لك السم كما  
دسه لى ، ولا تثقى الا بولدى سليمان .. الذى أرجو أن ينتقم لى من أخيه  
وان يؤول اليه الملك من بعدى ، لكى يحافظ على هذا الوطن قويا منيعا .

وأسلم مولاي محمد بن عبد الله الروح بين أحضان مرتا الفرنسية  
سلطانة المغرب ، فى الحادى عشر من شهر ابريل سنة ١٧٩٠ ، الموافقة  
لسنة ١٢٠٤ للهجرة .

تحققت أمنية السلطان الراحل بعد موته ، فلم ينعم مولاي يزيد  
بالمك طويلا ، بل مات فى ظروف غامضة ، واقتتل اخوته بضعة شهور ،  
وانتهى ذلك الصراع بارتقاء مولاي سليمان بن محمد عرش آبائه واجدادهم  
وظل جالسا عليه حتى وافاه الأجل فى سنة ١٨٢٢ ميلادية ، الموافقة  
لسنة ١٢٣٧ هجرية .

وكان هذا السلطان بارا بذكرى أبيه مولاي محمد ، وقد نسج على  
منواله فى السياسة والادارة ، وأحاط زوجة أبيه الفرنسية بمظاهر  
الأكرام والاحلال ، وكانت المسكينة قد فقدت ابنتها الوحيدة ، فوجدت  
بعض الزمراء فى معاملة السلطان الجديد لها ، واجتماع أعضاء أسرهما  
حولها بعد طول الفراق .

ومن أعمال هذا السلطان الباهرة ، قضاؤه على شرور القرصنة ،  
ودعوته ملوك أوروبا الى التعاون معه فى تأمين السلامة للمسافرين فى  
البحار ، وهو الذى أرسل الجنرال نابليون بوناپرت ، وكتب اليه يقول  
أن سلطنة المغرب فرنسية مثله من جزيرة كورسيكا ، وكان يعنى زوجة  
أبيه مرتا فرانشسكىنى . وفى سنة ١٧٩٩ ، أوفد مولاي سليمان شقيق  
السلطنة السابقة ، فنشنتى فرانشسكىنى فى بعثة الى بوناپرت . وفى  
أثناء وجود البعثة فى باريس ، تفشى وباء الطاعون مرة أخرى فى المغرب  
فأصيبت مرتا بالمرض القاتل كما أصيب بها أبوها من قبل ، وماتت فى  
١٥ يونيو سنة ١٧٩٩ الموافقة لسنة ١٢١٣ للهجرة .

ماتت مرتا فرانشسكىنى سلطنة المغرب فى الاربعين من العمر ،  
بعد أن جلست على العرش وقاسمت زوجها مولاي محمد ، حلو الحياة  
ومرهما نحو عشرين سنة . ولم يسعدها الحظ بأن ترى وطنها كورسيكا  
منذ أن خلفت منه طفلة صغيرة ولم تترك أبناء ولكنها تركت ذكرى طيبة  
عطرة ، وخدمت الوطن الذى تبناها بأمانة وإخلاص ووفاء .



# نضيت الجزائرية

---

ثورات متواصلة ، معارك دامية  
تفسيحات متوالية ، مقاومة  
ضاربة : هذا هو تاريخ الجزائر  
العربية منذ عام ١٨٣٠ ، وكان  
الختام أن أطلت شمس الحرية  
على البلد الثائر والشعب الأبي  
في سنة ١٩٦٢ .



طاف فائد الحصن على جنود الحامية في المراكز التي حددها لهم بدقة ، وتلقى منهم جساعة بعد جماعة وفردا بعد فرد ، القسم الذي ارتبطوا به تجاه الوطن وتجاه الله وتجاه أنفسهم ، بأن يدافعوا عن حصنهم دفاع المستميتين ، حتى اذا لم يبق منهم على قيد الحياة غير العدد الكافي من الرجال لحمل الجرحى والانسحاب بهم الى مواقع أخرى ، تسلسلوا الى الخارج تاركين للعدو جدراننا متهدمة واطلالا متراكمة !

وواصل العدو هجومه ، وواصلت الحامية دفاعها .

من هم المدافعون ؟ ومن هم المحتدون .

كانت الدولة الفرنسية تبني للجزائر منذ أعوام عدة ، فقد أمد الجزائريون الشعب الفرنسي بالمال والمؤن والمساعدات المختلفة ، في أيام محنته ، بينما كانت الدول الاوربية تضرب عليه الحصار وتحاول تجويعه ، قبلت ديون فرنسا للجزائر مايزيد على ستة مليارات من الفرنكات !

حدث ذلك في عهد حاكم الجزائر الداي علي بن احمد ، وفي عهد خلفه الداي حسين بن حسن .

ولما استقرت الامور في فرنسا ، بعد الاضطراب والافلاس ، عمد الداي الى المطالبة بدينه ، وتلكأت الحكومة الفرنسية في الدفع ، بل جعلت تفكر في التخلص من التزاماتها والتهرب من تسديد ديونها ، حتى ولو اضطرت الى استخدام القوة .

واتيححت لها الفرصة الملائمة : فقد لبثت الجزائر نداء الدولة العثمانية في حروبها مع روسيا وانجلترا وفرنسا ، ابان ثورة اليونان في سنة ١٨٢٧ وكان الاسطول الجزائري من بين الاساطيل التي تحطمت في معركة نافرين البحرية .

وفي الوقت نفسه ، عمد رسل فرنسا الى اصطناع خلاف مع الداي حسين بن حسن ، فتحلوه بوقاحة ، وغضب الداي فلوح بمروحة في وجه القنصل الفرنسي ، ولامست المروحة وجه الرجل ، فعلمت حكومة فرنسا

ذلك العمل اهانة موجهة اليها في شخص ممثلها ، وقررت أن تهاجم الجزائر  
لحجوا الإهانة .

وعلى هذا ، فانها لن تكتفى بالنهيب من دفع الدين المطلوب منها ،  
بل قررت أن تحتل بجيشها أرض الجزائر ، وتحولها الى مستعمرة تستأثر  
بمخزائها ، وتستولى على الاموال الطائلة التي قال لها جوايسيسها انها  
مكدسة في خزائن الداي بمدينة الجزائر ، وهي كافية لسد نفقات الحملة  
العسكرية مهما تبلغ ارقامها .

خطة استعمارية رسمت بإمعان تام ، على أساس أن تصيب ثلاثة  
أهداف بحجر واحد : والتخلص من الدين وملء خزانة فرنسا بأموال  
الجزائر ، والاستيلاء على بلد مترامي الاطراف كثير الموارد .

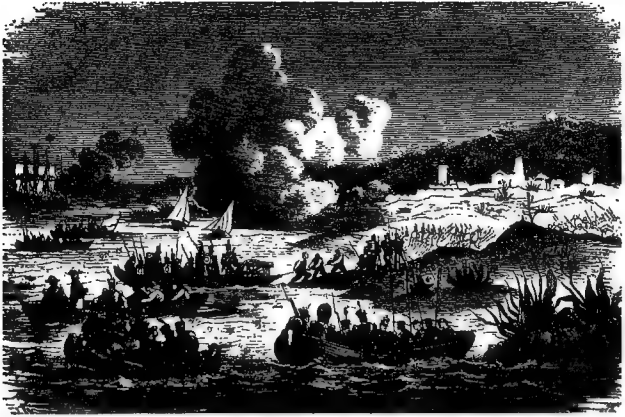
وفي شهر يونيو من سنة ١٨٣٠ ميلادية الموافقة لسنة ١٢٤٥ هجرية  
أبحر الاسطول الفرنسي سرياً بعد سرب في طريق العدوان . وقد خلا  
البحر المتوسط من اسطول جزائري يرد ذلك الغدر الذي لم يكن أحد  
يتوقعه . وفي الرابع عشر من ذلك الشهر ، نزلت طلائع الجيش الفرنسي  
في ميناء سيدى فرج . واتخذة القائد العام الجنرال بورمون ، وزميله  
الاميرال دويبرى ، قاعدة للعمليات الحربية ، التي جهزت لها فرنسا ثلاثين  
ألفا من جنودها .

وصمد الجيش الجزائري بالرغم من المفاجأة ، وهرع السكان أيضا  
الى صد الغزاة بما توافر لهم من سلاح وعتاد ، ولحقت النساء برجالهن  
يحملن لهم الذخيرة ويتولين اعداد الطعام ويضاعفن حماسهم بالزغاريد  
والأهازيج .

توالى المعارك خلال ثلاثة أسابيع كاملة ، تكبد فيها المعتدون خسائر  
فادحة ، ولم يتمكنوا من السيطرة على مدينة الجزائر ، عاصمة البلاد ، الا  
في اليوم الخامس من شهر يوليو .

وصلوا الى مداخل « القصبة » مركز الدفاع الرئيسى ، ولكن حامية  
الحصن الكبير المشرف على المدينة ظلت تواصل القتال من وراء الاسوار  
العالية والابراج المنيعة .

لم يكن عدد المدافعين عن الحصن يزيد على ألفين من المقاتلين ، بينهم  
أيضا نساء يقمن بخدمتهم ، ويواسين جرحاهم ، ويوارين قتلاهم في تراب  
الدهاليز .



بدء العدوان : نزول الحملة الفرنسية في سيدي فرج قرب مدينة الجزائر سنة ١٨٢٠

وحاصر الحصن العاصي عشرة آلاف من جنود بورمون !

في ذلك الطرف المصيب ، طاف قائد الحامية ، «الخنزجى» أى وزير  
المالية الجزائرية ، على جنوده فى مراكزهم ، فاقسموا بين يديه على مواصلة  
الدفاع بقدر ما تسمح به طاقاتهم البشرية •

وامتد الحصار أسبوعا كاملا •

كلما فتحت مدفعية العدو ثغرة فى الاسوار ، كان جنود الحامية الباسلة  
يسارعون الى سدّها بالحجارة ، وأحياتا بجثث القتلى من رفاقهم ! •

أسبوع كانت أيامه مليئة بالتضحيات المتواصلة ، شهدت كل ساعة  
من ساعاته ألوانا رائمة من البطولات الحقة : وتساقط الشهداء واحدا بعد  
واحد ، حتى اذا ما أقبلت نهاية الاسبوع ، لم يكن قد بقي من الحامية غير

بضع عشرات من الرجال ، أنهكهم التعب ، ونال منهم الحرمان كل نزال ،  
ومن حولهم خرائب واطلال •

كان الجنود جميعاً قد بروا بالقسم الذى قطعوه على أنفسهم • •  
فأصدر القائد امره الى البقية من ابطاله ، بأن يحملوا الجرحى وينسحبوا  
من الحصن سالكين المنافذ التى يجهلها العدو •

فى ركن من أركان الحصن ، وقف « بو عمران » وزوجته « نفيسة »  
يتبادلان الراى ، وسط الضجيج المتواصل وهزيم المدافع الذى لا ينقطع •

للرجل والمرأة ثلاثة أبناء فى ويمان الشباب • وقد التحقت الاسرة  
كلها بحامية الحصن الكبير • فاستشهد واحد من الابناء الثلاثة فى أثناء  
الحصار ، وخرج الاثنان الباقيان مع من خرج من الجنود الذين نجوا من  
الموت •

والاب والام يعرفان جيداً ، ماسوف يفعله الاثنان ، فلا شك فى انهما  
سيبثاران لأخيهما القتل ، ويستأنفان الجهاد فى ميادين أخرى ، مع من  
يوصلون القتال فى المدن والقرى والصحارى والجبال •

وقال بو عمران :

— أما نحن يانفيسة ، فان فى وسعنا أن نأخذ بثأرنا من الآن ، وبدون  
أن نغادر هذا الحصن ، وقد نموت فى سبيل الثأر ، ولكن بعد أن نرضى  
الله والوطن وفقيدنا العزيز •

وقالت المرأة :

— وأيك دائماً هو الراى الصائب يا بو عمران • ولن أخالفك اليوم ،  
كما اننى لم أخالفك فى أى يوم مضى ، فماذا ترى أن نفعل ؟

كان الجنود ينسحبون الى الخارج حاملين الجرحى ، ويتبادل عدد  
الباقين منهم داخل الاسوار فى انتظار دورهم للاختفاء فى الداهليز •

واستطرد بو عمران يقول :

— لقد وارينا شهيدنا التراب • وودعنا أخويه على أن نلتقى بعد ان  
يتم الانسحاب • • ولكننا لن نلتقى •

فسألت الزوجة :

سعاداً تعنى !



وبلجبة الأمر الذي اتخذ قرارا وصمم على تنفيذه ، قال بو عمران :  
- سوف ننتظر دخول الأعداء الى الحصن ، وانتشارهم في أرجائه  
بعد أن يكون رفاقنا قد ابتعدوا وأصبحوا في أمان ، ثم ...

- ثم ماذا ... سيقتلنا الفرنسيون .

- لا ... بل سنقتل منهم عشرات ومئات ، قبل أن يتمكنوا من تثبيت  
أقدامهم في الحصن ، وقبل أن يصلوا الى مستودع البارود ... ينبغي ألا  
يستولى الفرنسيون يا نفيسة الا على أكوام من الخرائب .

- فهمت يا بو عمران .

- اذن ... فلا شك في أنك توافقيني على ما اتويت الاقدام عليه .

- نعم .

- هيا بنا ... وكوني رابطة الجاش كمهدى بك في كل وقت ،  
يا نفيسة ... فقد لانخرج من هنا ... وندفن تحت انقاض الحصن ، مع  
الأعداء ...

. واحتضن الرجل زوجته ... ثم أخذها من يدها ، واختفى معها في  
فجوة بجوار الركن الذي كانا واقفين فيه .

بينما الجنود الفرنسيون يتسدفون الى صحن القلعة ، في جلبية  
المنتصرين ، وترتفع أصواتهم بأناشيد الظفر ، دوى انفجار هائل زلزل  
الأرض تحت أقدامهم ، وهز ما تبقى قائما من الجدران الضخمة ، فتطاير  
التراب في الجو ، وارتفعت في الفضاء سحب سوداء ، وتساقطت الحجارة  
في كل صوب ، وحلت صيحات الذعر والهلع محل أناشيد النصر ، وهوت  
الأسوار بأبراجها ، وتحول الحصن الكبير ، الى قبر كبير .

أشعلت نفيسة وزوجها بو عمران النار في البارود ، فكان الانفجار  
الذي حول المكان الى جحيم متجاج .

وهلك من هلك من الجنود المهاجمين . ودخل رفاقهم في أثرهم  
ليحتلوا الاطلال .

وقتل نفيسة وزوجها ، وراحا شهيدى الواجب ، ولحقا بآبئهما الذي  
سببهما الى عالم الخلد .

اما الابن الثاني والابن الثالث ، فقد ابتعدا سليمان ، ليلتحقا بالمجاهدين ، في ظاهر المدينة .

واحتل الفرنسيون عاصمة الجزائر ، ونهبوا القصبه ، ووضعوا أيديهم على خزائن الحكومة الجزائرية المملوءة ذهباً وفضة وحجارة كريمة فتقلوا ذلك الكنز الهائل الى بلادهم ، حيث تلقاه ملكهم شارل العاشر ورجال حكومته بمظاهر الفرح والابتهاج .

وبلغت قيمة ما دخل خزينتهم بعملية السطو تلك ، ثمانية عشر مليارا من الفرنكات . ولما انتهى الغزو ، لم نزد نفقات الحملة التي قامت به على ثمانية واربعين مليونا ونصف مليون من الفرنكات فقط !

ولما اضافوا الى ثمره سطوهم قيمة الدين الذي تخلصوا منه ، وهو ستة مليارات من الفرنكات ، وجعلوا انهم قد استرجعوا نفقات الحملة ، وربحوا نحو اربعة وعشرين مليارا ، أمر الملك بأن يستعان بها لسد العجز في الميزانية ، وانقاذ الدولة من الافلاس .

وظلوا أن الامر قد استتب لهم في الجزائر ، بعد أن دخلوا عاصمتها ولكن ظنهم خاب وآمالهم تبددت .

فقد استأنف الشعب الجزائري القتال ، وتنادى السكان في المدن والقرى الى حمل السلاح . وحشدت القبائل جيوشها ، واستمرت الحرب قائمة على قدم وساق .

ووجد الامير عبد القادر بن محيي الدين صفوف مواطنيه وقادهم في جهادهم الرائع . وكان ولدا بو عمران ونفيسة بين المجاهدين الذين حاربوا تحت لواء البطل العظيم .

ودارت الايام دورتها ، وتوالى الاعوام . فقتل واحد من الاخوين في ثورة نشبت ضد الفرنسيين في سنة ١٨٥٧ ، بعد رحيل عبد القادر عن وطنه .

وفي سنة ١٨٦٣ ميلادية الموافقة لسنة ١٢٧٩ كان الامير الجزائري يقيم في دمشق ، التي اتخذها مقرا له في منفا ، وهناك لحق به قاسم بو عمران ، أخ الشهيد اللذين سقطا على أرض الجزائر ، والباقى على قيد الحياة . من اسيرة بطسل القصبه ، الذي نسف الحصن على رموس الفرنسيين في سنة ١٨٣٠ ، ودفن نفسه مع زوجته تحت انقاضه .

وقضى قاسم بقية حياته في دمشق ، مع والمقاربة الذين التفوا حول

أميرهم وقائدهم السابق ، وأنشئوا في المدينة العريقة حيا عرف باسمهم  
وتناسلوا وتكاثروا \* \*

أما وطنهم الجزائر ، فقد ثار مرة بعد مرة ، وسنة بعد سنة ، على  
الاغراب المفتصبين \* وكان الثائرون ، كلما أخلت لهم ثورة ، عادوا ،  
أو عاد أبناؤهم ، أو عاد أحفادهم الى اشغال غيرها ، والثقة تملأ نفوسهم  
بان يوم النصر لابد آت لا ريب فيه ، وان الحرية بنت الجهاد ، وان الحق  
لا يضيع مادام صاحبه يطالب به ، والسيف بيده \*



# توكرت غادة الوادي

---

اسمها « توكرت » ولكن  
المحبين بها كانوا يسمونها  
« البهجة » ويصفونها بأنها  
« غادة وادي الريح »



الى الجنوب من مدينة قسطنطينية بالجزائر ، وفي جوف الصحراء  
يمتد وادى يعرف بوادى الرينغ على مسافة كبيرة ، تتخللها  
سلسلة من الواحات الخضراء والجسداول والآبار ، وتكتنفها  
غابات من النخيل يصعب على النظر أن يدرك مداها ، وعلى طول الوادى،  
تقع المدن والقرى والمزارع ، فى ظلال الاشجار وحماية الهضاب .

وأهم الواحات وأكبرها ، فى وادى الرينغ ، مدينة « توكرت »  
وملحقاتها . حيث يبلغ عدد السكان نحو خمسة وثمانين ألف نسمة ،  
معظمهم من البربر المستعمرين ، وهم يفاخرون بمدنيتهم توكرت ،  
وقصبتها أى فلمتها ، ومتاجرها الفاصلة بـختلف السلع ، وعشرات المآذن  
التي تخرق فضاءها ، وينطلق من شرفاتها ، خمس مرات فى اليوم ،  
الفداء الشجى : « حى على الصلاة ، حى على الفلاح ! »

كان اسمها « النزلة » لا « توكرت » وللاسف الذى تعرف به اليوم  
قصة مثيرة ، يروىها لك المطلعون من السكان ، لو جالستهم فى أمسياتهم  
حول المواقد أو المناسف . ويخيل اليك ، وأنت تصفى الى روايتهم ،  
ان فيها مزيجا من الحقيقة والخيال ، ومن التاريخ والاسطورة .

النزلة بلدة قديمة ، لا يمكن تحديد الزمن الذى انشئت فيه ،  
ولا معرفة القوم الذين انشئوها فى وادى الرينغ . وكانت قد بلغت درجة  
من الازدهار عظيمة ، يوم دخلها الاسلام ابان انتشاره فى اقاليم افريقية  
الشمالية ، فاعتنق سكانها وجيرانهم فى قرى الوادى ووحدات الدين  
الجديد ، فوجأ بعد فوج ، وامتزجت لغتهم البربرية الاصيلة بكلمات  
عربية تزايدت مع الايام . وفى أوائل القرن الهجرى التاسع - الموافق  
للقرون الخامس عشر للميلاد - كانت البلدة تختار حكامها من رجال  
الدين أنفسهم ، فيتولون فيها السلطاتين الروحية والزمنية فى آن  
واحد .

فى ذلك الوقت ، كانت تعيش فى النزلة امرأة شابة على جانب  
كبير من الجمال الاخاذ توقع الشبان والكهول - وحتى الشيوخ - فى

شراك حسننها ، فيتوافدون عليها من جوارب الوادي ، ويفقدون عليها  
الاموال والهدايا ، مقابل ما توفره لهم من أسيايب اللهو والتسلية .

اسمها « توكرت » ولكن المجدين بها سموها « البهجة » وكانوا  
يصنفونها بأنها « غادة وادي الرينج » .

شاع الفساد بسببها . فقرر الشيوخ المسئولون عن صيانة الأمن  
وسمعة البلدة ، أن يبعثوا الغانية عن النزلة تخلصا من الفتنة ، فأنذروها  
بالرحيل ، ولم تمنع توكرت في تنفيذ الانذار ، ولكنها انتقلت الى ظاهر  
البلدة ، حيث نصبت خيمة استقرت فيها ، فجاءت النتيجة على غير  
ما كان الشيوخ يأملون !

أصبحت الخيمة المنصوبة خارج البلدة ملتقى العشاق العديدين ،  
ومقصد طلاب اللهو من سكان النزلة . وبدعوا الواحد بعد الآخر ينصبون  
خييامهم حولها ، ويهجرون منازلهم للإقامة في ذلك المكان الذي اتخذته  
الغانية الساحرة مقرا لها ، ومرنما لمشاقها .

وفي ذات يوم ، مر ببئلة النزلة رجل معروف بالصلاح والتقوى ،  
يقضى أيامه متنقلا بين واحات الصحراء وقراها ومضاربها ، ويقصد في  
كسب رزقه على كرم الضيافة وعطاء المحسنين .

الناس يعرفونه باسم « بو جملين » لأنه يركب جملا ويقود آخر  
محملا بزيادة ومتاعه .

لم يستضفه أحد من سكان البلدة في ذلك اليوم ، ولم يفتح في  
وجهه باب ، ولم تمتد اليه يد إحسان . فواصل الرجل السير ولما ابتعد  
عن المنازل كان الليل قد أقبل ، فطرقت أذنيه أصوات ترتفع بالغناء  
والصياح ، فمشى في اتجاه مصدرها ، وإذا به يصل الى الخيمة التي كانت  
« توكرت » في تلك الليلة تقيم فيها حفلة صاخبة ، فلما وصل الى بابها  
الامر عرسا تزف فيه إحدى حسان البلدة الى زوجها !

دعى الى الدخول فدخل . وهبت الغانية ترحب بالفريش وأخذته  
من يده وأجلسته في مكان الصدارة . فآكل وشرب وقضى الليل في  
ضيافة « توكرت » وأصحابها ، وفي صباح اليوم التالي ، رفع بو جملين يديه  
الى السماء داعيا للمرأة بطول العمر ، وقال وهو يودعها : « لقد فهمت  
حقيقة امرك مما رأيته وسمعته في هذا المكان . فاطلب من الله أن يهديك  
سواء السبيل ، ويحول خيمتك هذه الى دار عامرة ، وإحيايم التي تحيط  
بها الى منازل غاصة بالاسر السعيدة ، مكافأة لك على حسن ضيافتك .. »





الامير عبدالقادر الجزائري  
في سجنه كما رسمه شاربيل  
فرنسي وقع في الاسر

وان يخل من سكانها تلك البيوت التي تصد المسافرين وتفلق أبوابها في  
وجوه الغرباء .. وأن يجعلك تموتين ميتة الصالحين ! »  
وابتعد الرجل التقى الورع بجمليه ، واختفى في طيات الصحراء !  
واستجاب الله لدعائه !

فلم تمر أشهر على ذلك الحادث ، حتى وصل الى النزلة حاج مغربي  
في طريقه للمرة الثانية الى أرض الحجاز المقدسة ، فسمع بقصة المرأة  
الضالة وزيارة يوجملين ودعائه ، وعلم أن توكرت بدأت تغير سيرتها ،  
وتلتمس طريق الصلاح ، وتبذل المال للفقراء بلا حساب ، وتدعو عشاقها  
الكثيرين الى تشييد المنازل محل الخيام ، والانصراف فينثا فشيئا عن حياة  
اللهو والعريضة !

وقال الحاج المغربي محمد بن يحيى : « لن أواصل السير الى الحجاز ،  
بل سأبقى هنا ، لأخذ بيد الغانية في سبيل توبتها ، وأصل الى الله لكي  
يهدى الضالين جميعا ، ويرعى بعين عنايته هذه البلدة الصغيرة الجميلة ! »  
وتمت بقية المعجزة على يد الحاج محمد بن يحيى المغربي !

ثابت « توكرت البهجة » الى الله توبة كاملة • وأصلح العشاق سيرتهم • ووضعت الغانية النابتة أموالها وحليها ونقودها تحت تصرف الرجل الصالح الثانى ، بعد أن أصغت الى نصائح الرجل الصالح الاول • فاتفق محمد بن يحيى ثروة المرأة فى سبيل الخير ، وشيد بين المنازل مسجدا ، وبجوار المسجد مضيقة ، والى جانب المضيقة مدرسة •••

وتحولت حياة اللهو فى البلدة الجديدة عن مجراها السابق ، وتغيرت معالمها ، وقرر عشاق «غادة الوادى» أن يطلقوا اسمها على البلدة التى انشئوها مكان خيامهم خارج نطاق النزلة • ومنذ ذلك الوقت • بدأت النزلة تخلو من سكانها ، وعرفت البلدة الجديدة باسم « توكرت » وأصبحت مع الزمن جديدة بأن توصف ، كما كانت توصف الغانية التى أعطتها اسمها ، بأنها : « غادة وادى الريح ! »

أدى محمد بن يحيى رسالته على أحسن وجه • ولما وافته الاجل ، أسلم الروح قرير العين ، بعد أن رأى المرأة التى تولى اصلاح سيرتها ، وقد تخلصت من الرزائل والعيوب ، تتحل بأحسن الصفات وأجمل الفضائل •

وشيد له سكان البلدة الجديدة ضريحا تعلوه قبة ، لا يزال الى الآن يعرف ، فى توكرت بوادى الريح ، باسم مقام « المربط سيدى محمد ابن يحيى » واليه يحج طلاب البركة من جوانب الصحراء •

ولحقت توكرت بالرجل الذى أخذ بيدها الى طريق الهداية – بعد وفاته بقليل – تاركة خلفها ذكرى معطرة مكرمة ، وبلدة تحمل اسمها ، قدر لها أن تصبح ، فيما بعد مدينة كبيرة ، وأن تتمتع بالازدهار والرخاء •••

ومرت أعوام ••• ثم تلتها أعوام •••

ونزل بوادى الريح قحط شديد • وعجز ولاية الامر فى توكرت عن إبعاد شبح الفاقة والجوع عن مدينتهم ، وعن غيرها من واحات الوادى ، وظنوا ان نهايتهم قد اقبلت ، وراحوا يتضرعون الى الله لينقذهم مما هم فيه من بؤس وشقاء •••

وذكروا مرور بوجملين فى بلدتهم ، وتوبة الغانية التى اهدت واهتدى معها الضالون جميعا ، وبقاء سيدى محمد بن يحيى بين ظهرانيهم ودفنه فى توكرت •••

وساق الله اليهم ، مرة أخرى ، من يأخذ بناصرهم ويعيد الى أجسامهم الصحة والى نفوسهم الطمأنينة •••

وكان المنفذ في هذه المرة هو « سليمان المريني » وهو أيضا من  
ابناء المغرب ... كان عائدا من الحجاز في قافلة لا نهاية لها ، تحمل  
الاموال والارزاق والسلع العديدة ، وبحرسها عشرات من الخدم والعبيد .  
وصل المريني الى مدينة توكرت ، فهاله ما شاهده فيها من بؤس ،  
وما يعانيه سكانها من حرمان ، فقرّر ان يبقى فيها ، وان يساعدها على  
النهوض من كبوتها .

ولكنه اراد ، في الوقت نفسه ، ان يلقي على الناس درسا ،  
بعد ما علمه من انهم اساءوا التصرف في تدبير امورهم في عهد الرخاء ،  
فلما قلب لهم الدهر ظهر المجن ، لم يستطيعوا دفع الكارثة عن انفسهم ،  
ويواجهوا العاصفة ويخرجوا منها سالمين .

عرض على السكان امواله ، في مقابل ما يتنازلون عنه من حل  
ومنقولات وممتلكات . فباع السكان ما يملكون ، ثم بلعوا نساءهم  
واطفالهم ورهنوا عند الرجل حريتهم ! .

وشيد المريني في وسط المدينة مسجدا كبيرا ، ويوم اداء الصلاة  
فيه للمرة الاولى ، وقف المغربي خطيبا في القوم فقال لهم : « ليكن  
ما حدث في مدينتكم وواديكم درسا لكم وعبرة . اما الآن ، فاني اعتق  
العبيد واعيد الى الجبيع حريتهم وكرامتهم ، وكل ما اخذته منكم بئس  
حلالا . وتعالوا نعمل معا يدا واحدة لكي تسترجع هذه المدينة سابق  
عزها وبهجتها ! » .

وارتفعت اصوات السكان بالهتاف والدعاء لسليمان المريني ،  
الكريم النبيل ، وبمبايعته اميرا على توكرت وملحقاتها في وادي الريغ .  
وكان الناس قد سموه من قبل « الجلابي » باعتبار أنه جلب لهم  
الخير بوصوله مع قافلته الكبيرة الى مدينتهم خلال محنتها .

قبل سليمان المبايعة ، فكان اول امير من الاسرة المعروفة باسم  
« الجلابية » أو « بني جلاب » والتي حكمت وادي الريغ مدة طويلة ،  
وحمل بعض امرائها لقب « سلطان » وتحالفوا مع الفباطل المجاورة ،  
أو اشتبكوا معها في حروب دامية ، لكي يحالفوها من جديد ويتكاتفوا  
معهما لمقاومة الحملات العسكرية التي ارسلها حكام السواحل التابعون  
للدولة العثمانية لاختضاع سكان الصحراء أو سلب اموالهم ومنتجعات  
ارضهم .

مرت بسلطنة توكرت وادى الريغ ، خلال ثلاثة قرون ، عهود نيرة  
واخرى مظلمة ، عهود عم فيها الرخاء واخرى خيم فيها البؤس ، وايام  
سلم وايام حرب ، ولكن عدد السكان ظل يزداد عاما بعد عام كما ظلت  
مساحة الواحات تاخذ فى الاتساع تمشيا مع ازدياد عدد السكان .  
وامتدت غابات النخيل الى مسافات بعيدة واوقفت طغيان الرمال على  
المساكن ، وساعدت فى نمو المراعى وتوفير الغذاء لقطعان الماشية . .

وفى القرن التاسع عشر الميلادى ، اقدم الفرنسيون على غزو  
الجزائر ، فارسل سكان وادى الريغ متطوعين منهم للاسهم فى الدفاع  
تحت راية أمير المجاهدين عبد القادر بن محيى الدين الجزائرى . ودوخ  
مجاهدو توكرت الفرنسيين . . .

وفى سنة ١٨٥٤ ميلادية الموافقة لسنة ١٢٧٠ هجرية - سقط  
الوادى الحبيب فى قبضة الغزاة الأغراب . ولكن مدينة توكرت ظلت  
شوكة فى جنوبهم . واسهمت فى النورات المتوالية التى كانت ارض  
الجزائر ميدان لها . . .

# قبة سيدى الشيخ

.. القسمة أن تنتقم لوطنها ..  
فصحت بقلبها على أرض المعركة  
.. تحت قبة سيدى الشيخ



عشرون سنة قضاها القوم في قتال الفزاة الفاتحين . لم يهدأ لهم بال ، لم يفتقر لهم عزم ، لم يتسرب الوهن الى نفوسهم ، لم يخضعهم وعد ولم يرهبهم وعيد . خلال تلك السنوات العشرين التي سيطر فيها الموت على شيوخهم ، وسقط فيها الكهول في حومة الوغى والسلاح بأيديهم ، فحل محلهم الشبان ، لكي يحل الاحداث فيما بعد محل الشبان .

عشرون سنة قضاها الرجال الملتزمون الى «قبائل أولاد سيدى الشيخ» على متون الخيل وظهور الجمال .

كانت ثورة « أولاد سيدى الشيخ » أطول ثورة نشبت على ارض الجزائر ، ضد الفرنسيين المعتدين ، منذ أن نزلت جيوشهم في خليج سيدى فرج ، في سنة ١٨٣٠ ، الى أن انتهى حكمهم في عام ١٩٦٢ ، بعد ثورة استمرت سبعة أعوام ونصف عام .

في اوائل القرن الحادى عشر للهجرة ، الموافق للقرن السابع عشر للميلاد توفى « سى عبد القادر الشيخ » التقى الورع ، ودفن في بلدة الابيض ، على النهر المعروف بهذا الاسم في جنوب وهران ، وشيدت على قبره قبة ، وانشئت حوله زاوية ، وعرف المكان منذ ذلك الوقت باسم « الابيض سيدى الشيخ » ، وأصبح مزارا يحج اليه الناس من جميع انحاء الجزائر .. ومن تونس والمغرب .

هاجم الفرنسيون الجزائر . وتمكنوا من تثبيت أقدامهم على الساحل . وشرعوا في الاتجاه الى الداخل . فتصدى لهم الامير عبد القادر بن محيى الدين في سنة ١٨٣٢ ، وانطوت القبائل تحت لوائه ، فسار بها من معركة الى معركة ، وظل القتال مستمرا بقيادته خمسة عشر سنة كاملة .

وأخذ أولاد سيدى الشيخ نصيبهم من الجهاد ، فالتحق منهم مئات بقوات الامير البطل . ولجأ عبد القادر الى ربوعهم أكثر من مرة ، ليعيد تنظيم جيشه ، ويعاود الكرة على الاعداء .

وتجمع اولاد سيدى الشيخ فى جنوب اقليم وهران ، واستقر  
زعموهم فى بلدة الابيض سيدى الشيخ حيث القبة والزوار .

وفى مساء يوم من ايام الشتاء سنة ١٢٧٣ هجرية - ١٨٦٠  
للميلاد - داخل دار صغيرة فى ظاهر البلدة ، دار حديث مثير بين فتاة  
فى نهاية العقد الثانى من العمر ، وشابين اكر منها بقليل .

قصت حليلة بنت مى ابراهيم على ابنى عمها ، حسن بن مى عمر  
وقاسم بن مى عمر ، ما حدث لها فى مدينة وهران ، مما حملها على  
الهرب والاتحاق ببنى قومها فى مقرهم المنزل .

كان ابوها مى ابراهيم المعروف بالعنابى على خلاف مع أسرته  
واقام فى وهران حيث تزوج امرأة فرنسية انجبت له ابنه عبد السلام  
وابنته حليلة . ولم يكن هذا النوع من الزواج قد تفشى بعد فى الجزائر .  
وفى الوقت الذى كان فيه الجفاء يستحكم بين مى ابراهيم وافراد أسرته ،  
كان الفرنسيون يحاولون بشتى الوسائل أن يستميلوه اليهم ، ليستعينوا  
به فى تهدئة النفوس الثائرة عليهم . وكانوا يمتقنون أنه بوسمهم أن  
يؤثروا عليه بواسطة زوجته الفرنسية « كليمانتين يورجوا » .

ولكن الرجل الذى وهب قلبه لامرأة فرنسية لم يبع نفسه لقومها ،  
ولم يسخر ضميره لخدمتهم . وقد رفضت الزوجة من جهتها أن تكون  
اداة طيعة فى ابدى الدين ارادوا أن يستغلوا زواجها ، بأن تدفع بالرجل  
الذى اصطفاها رفيقة حياته ، فى طريق الضلال .

وحدثت ذات يوم فتنة فى وهران - وكانت الفتن متتالية  
متوالية - فاحتوى ثلاثة شبان كان الجنود يطردونهم فى بيت ابراهيم  
العنابى ، واقتحم الجنود البيت ، فدافع صاحبه عن الشبان الذين  
استجاروا به ، ورفض أن يسلمهم لمطاردتهم . وتضامنت معه أسرته ،  
عملا بالتقاليد المتوارثة عند العرب . ولم يشذ مسلك الزوجة الفرنسية  
من مسلك زوجها وابنه وابنته . فدارت فى داخل البيت معركة استشهد  
فيها الشبان الثلاثة وافراد الاسرة ، وتمكنت حليلة وحدها من النجاة ،  
ولكن بعد أن قتلت بيدها واحدا من الضابطيين اللذين قادا حملة المطاردة ،  
كما قتل رفاقها ، قبل استشهادهم خمسة من الجنود .

والضابطان هما الاخوان جان وجاك فرديه . قتلت حليلة الاول .  
وحاول الثانى اللحاق بها ولكنها اقلنت منه ، وتوارت فى ازقة المدينة ،





قافلة في صحراء الجزائر في القرن الماضي

ثم ابتعدت متجهة الى القوم الذين تنتمى اليهم أسرتهما ، اولاد سيدي الشيخ .

روت حليلة على مسامع ابني عمها ، حسن وقاسم تفاصيل ذلك الحادث الدموي ، وكيف أنها علمت ، قبل الرحيل عن وهران ، ان جاك فرديه وجنوده حملوا جثث القتلى من رفاقهم ، ثم اضرموا النار في بيت سي ابراهيم العنابي فانت عليه ، وتحول الى قبر للشهداء العرب الذين التهم الاتون المتاجج جنتهم .

— والآن يا حسن ، والآن يا قاسم ، جثث اليكما يتيمة وحيدة ، قائمتا سندي الباقي في هذا العالم . وقد اقسمت ، وانا في طريقي اليكما ، ان اقف حياتي للاخذ بشار الاعزاء الذين قتلهم اولئك الاغراب امام عيني ، ابي الذي كان على خلاف معكما ومع قومنا ، وامى الفرنسية

التي كنتم جميعا تكرهونها لاعتقادكم أنها غررت بأبي ، وقد أثبتت أنها كانت ودية للأسرة التي أصبحت عضوا فيها ، وأخي التوام الذي قتل اثنين من المعتدين ، والمواطنون الثلاثة الذين استجاروا بشا فحميناهم وأفنيتم أسرتنا في سبيلهم فهل تفران ما صنعت ، وهل تقسمان معي على الإخلال بالثأر ؟

فأجاب الشبان معا ، وبكلمة واحدة : « نعم ! » .

واحتضن كل منهما ابنة همه حليلة ، ثم تشابكت أيدي الثلاثة ، وانبعثت من بين شفاههم عبارات القسم الذي قطعوه على أنفسهم بالعمل معا ، وهو القسم الذي ارتبطت به حليلة بنت سي إبراهيم ، وهي في طريقها الى قبة سيدي الشيخ ، في بلدة الإيضي .

وفي الوقت نفسه ، هناك ، في وهران ، كان الفسابط جاك فرديه ، اخو الفسابط جان فرديه يقسم من ناحيته ألا يعود الى بلاده قبل ان يعثر على الفتاة التي قتلت اخاه بيدها ، فيقتلها بيده .

لم يطل انتظار حليلة في البلدة التي آوت اليها بعد المحنة التي حلت بها . فقد شاعت الاقدار ان تتيح للفتاة فرصة العمل في سبيل ثارها ، في العام التالي لوصولها الى الزار الذي كان بنو قومها يحجون اليه ، ويعقدون حوله حلقاتهم ، ويعدون فيه العدة لثورتهم الكبرى .

في جنوب وهران ، داهم اولاد سيدي الشيخ قافلة فرنسية محملة بالارزاق والاسلحة في صيف سنة ١٨٦٢ ميلادية ، الموافقة لسنة ١٢٧٨ للهجرة ، ففتكوا بها ، واستولوا على حمولتها ، وكان يقودهم في تلك الغزوة حسن بن سي عمر ، وقاسم بن سي عمر ، ومعهما حليلة الفتاة الناقمة الغاضبة . وفي تلك المعركة الصغيرة ، قتلت حليلة الفسابط الفرنسي الذي كان يقود القافلة ، وقالت بعد ان عاد رفاقها الى قاعدتهم منتصرين :

— هذا واحد .. وبقي ان اقتل خمسة آخرين من الفسباط ، واحدا مقابل كل شهيد الستة الذين سقطوا في بيت أبي بوهران ... فان الجنود الذين يقتلون بيدي أو بيدي غيري من بني قومي ، لا يحسب لهم حساب . والفسباط وحدهم هم الذين يحسب لهم حساب ...

وهمس ابن مهما حسن في أذنها :

— يا حليلة .. لقد كاشفتك بحبي على اثر عودتك الى حمى القبيلة ، بعد مأساة وهران ، اقلا ترعين بأن تصبحي زوجة لى الآن ، وقد تم لك من الثار الذى تسعين اليه جزء واحد من ستة أجزاء .

واجابت حليلة :

— أما أجبتك يا ابن عمى . يوم كاشفتنى بحبك ، بأن همى الوحيد منصرف الآن الى تحقيق ذلك الثار الذى أنشده ، وان هذا أيضا يجب أن يكون همك أنت ... وان حيننا ، اذا تكلل بالزواج بعد الشار للشهداء ، يكون مفعما بالسعادة والهناء ، أكثر منه لو تزوجنا الآن ، وانصرفنا الى الاهتمام بعبنا ، وأهملنا الواجب الذى ارتبطنا به بالقسم المشترك !!

وجدت حليلة نفسها فى أزمة عاطفية جارفة . ان ابن عمها الاكبر حسن بن سى عمر ، يحبها حبا عنيفا . وهى تشعر ، بسليقة الاثنى ، ان عاطفة خفية تختلج أيضا فى صدر ابن عمها الاصغر ، قاسم ابن سى عمر ، فيحاول كتمانها ، لانه لا يريد ان تقوم بينه وبين أخيه منافسة على فتاة واحدة ، هى ابنة عم الاثنين معا . وأدركت حليلة ان الوسيلة الوحيدة لصرف الاخوين عن التناحر من أجلها ، هى ان تدفعهما فى طريق الجهاد ، من أجل الوطن الجزائرى من ناحية ، ومن أجل ثارها المقدس ، من ناحية أخرى .

وفى سنة ١٨٦٤ ميلادية ، الموافقة لسنة ١٢٨٠ للهجرة ، زحفت على قبائل سيدى الشيخ قوة فرنسية يقودها السكولونيل بويرير . فهاجمها فرسان سيدى الشيخ بقيادة سى سليمان ، وأفنوها عن آخرها فى عين بوبكر ، وسقط قائدها نفسه قتيلًا فى حومة المعركة ، وكان الاخوان حسن وقاسم ومعهما حليلة فى صفوف المهاجمين ، وتم لحليلة أن تحقق بعض ثارها ، فقتلت بيدها واحداً من ضباط الحملة ، ولكن ابن عمها الاكبر العاشق ، أصيب بجرح مميت لم يقدر له الشفاء منه ، ففاضت روحه فى ميدان القتال ، بعد هزيمة الفرنسيين ، وكانت كلماته الاخيرة لآخيه وابنة عمه :

— انك تعرف يا قاسم اننى أحب حليلة . فهى بعد الآن أمانة بين يديك ، ولتكن زوجة لك ، بعد أن تصبح فى حل من قسمها !

وعاكست الاقدار العاشقين .

غلا بـشتركان فى المارك ، ويقالان بشجاعة واقدام ، ولكن الحظ

خان الفتاة المجاهدة فتوقف مدد ضحاياها عند الاربعة الذين فتكت بهم .  
وفى سنة ١٨٧١ للميلاد الموافقة لسنة ١٢٨٧ للهجرة ، تضامن  
الثائرون من اولاد سيدى الشيخ مع الثائر المقرانى ، وفى معركة دارت  
رحاها فى غرب وهران ، قتلت حليلة ضابطها الخامس وبقي عليها مرحلة  
واحدة للبر بقسمها كاملا !

وعاد الحظ يعاكسها ...

أعوام أخرى انقضت ، والشاب والفناة يعملان للهدف المشترك الذى  
يسعيان اليه ...

وأولاد سيدى الشيخ يواصلون صراعهم الرهيب ، ضد قوات  
متزايدة ، واسلحة فائكة ، وهناد يتسم به العدو الذى كانت الامدادات  
تصل اليه تباه من فرنسا .

صبر قاسم ، وصبرت حليلة ، عشر سنوات أخرى .

وفى سنة ١٨٨١ للميلاد ، الموافقة لسنة ١٢٩٨ للهجرة ، وقعت  
معركة بين الثائرين وحملة فرنسية فاستشهد فيها قاسم بن سى عمر ،  
قبل ان يتحقق الحلم العاطفى الذى عاش له . وبقيت حليلة وحيدة  
فى الدنيا ، بعد ان فقدت ذويها جميعا .

وبعد اسابيع من المعركة ، زحفت قوة فرنسية كبيرة ، بقيادة  
الكولونيل نيجريه ، على بلدة الابيض .

وتجمع اولاد سيدى الشيخ للدفاع من عرينهم . ونزلت حليلة  
الى الميدان مع المجاهدين من بنى قومه .

وفى حومة المعركة ، وجدت الفتاة نفسها وجها لوجه مع الفريم  
الذى بحثت عنه ، وبحث منها ، خلال السنوات العشرين التى انقضت  
على مأساة وهران .

ذلك الفريم هو الضابط جاك فرديه أخو الضابط جان فرديه .  
اذن ، سيكون معى السادس . كان يقابل والسياف بيده . وكانت حليلة  
تقاتل بخنجر أهدها اليها ابن عمها قاسم وهو يسلم الروح بين يديها .

القت الفتاة الخنجر من يدها وصاحت صيحة مدوية ، ووثبت  
على الرجل الذى عرفته وعرفها ، فبأبرها بضربة من سيفه ، وتعلقت  
الفتاة به ، وانشبت إظافرها فى عنقه ، ودار بين الاثنين صراع رهيب ،

وسط الدخان المتصاعد من الحرائق . فقد أمر الكولونيل نيجريه بأن  
تضرم النار في زاوية سيدى الشيخ وقبتها والدور المحيطة بها ، ظننا  
منه انه يقتل روح المقاومة في نفوس القوم ، بتدمير قاعدتهم ، وتضريب  
المزار الذى يرقد في ترابه جدهم الاعلى .

وهمدت النيران . وابتعد المعتدون عن ذلك المكان المقدس الذى  
دنسوه وأحرقوه ، حاملين معهم القتل والجرحى من رجالهم .

وبين الجثث ، عثروا على جثة الضابط جاك فرديه ، وبجانبا جثة  
امراة يتدفق الدم من جرح بليغ في صدرها ، وقد أطبقت يديها على  
عنق الضابط فآزهقت روحه ...

ماتت حليلة بنت ابراهيم العنابى بعد ان تم لها ثاؤها وبرت  
بقسمها . ولكنها لم تنعم بالحب الذى آثرت عليه القتال والجهاد ، في  
سبيل وطنها وفى سبيل قومها !

وبعد ثورة اولاد سيدى الشيخ ، التى استمرت عشرين عاما  
وانتهت في تلك السنة ، اعيد بناء الضريح ، وتشبيد المزار ، وارتفعت  
في الفضاء من جديد « قبة سيدى الشيخ » في بلدة الابيض ..



# البطل الضري



فقد حامل العلم عينيه ،  
فتلقت العلم منه زوجته ،  
وفقدت ذراعها اليمنى فرأته  
ياليسرى !





بعد أداء صلاة الفجر ، وقد بدأ الليل يرفع رواقه عن دمشق الفيجاء ، وأسواقها الضيقة ، وبيوتها الهادئة ، وفوطتها الخضراء أخذ الأمير عبد القادر بن محيي الدين الجزائري مجلسه في صدر القاعة الفسيحة ، وحوله أفراد أسرته الكبيرة ، في ذلك الصباح البهيج ، صباح عيد الاضحى المبارك ، لسنة ١٢٨٠ هجرية ، الموافقة لسنة ١٨٦٣ للميلاد .

كان البطل الخالد ، الذي اختار المدينة الخالدة مقرا له ومنفى ، شديد الحرص على الاحتفال بالامياد كلها ، احتفالا جديرا بمعانيها السامية . فيها يلتئم شمل الاسرة ، ويجتمع رفاق الأمير الذين هاجروا معه حول عييدهم . فتتجرع الدبابيح وتوزع الصدقات ، وترسل الهدايا على نفس المجاهدين الذين استشهدوا في المعارك ، هناك ، في جبال الجزائر ووادها وبواديها ، خلال الحروب التي خاضوا شعارها ضد الغزاة الفرنسيين .

في تلك المواسم ، كانت الذكريات تتراحم - ذهن الرجل الذي قاد أولئك المجاهدين في ساحات الشرف ، والمشاعر المتباعدة تتلاطم في صدره ، فيروي من الذكريات ما يلائم المقام ، ولا يقوى دائما على كظم المشاعر ، فتعبر عنها دمعة تنفر من عينه ، وتنساب على خده !

ما ان اطلت شمس ذلك اليوم ، وجعلت خيوطها تداعب المدينة المبكرة في صحوها ، حتى توافد الناس على الدار الرحبة ، المسيحية منهم يسابق المسلم ، والغنى يصطحب الفقير ، والابناء يرافقون آباءهم ، وقد جاءوا مسلمين مهشّين جريا على العادة التي اتبعها الدمشقيون ، منذ اليوم الذي حل فيه الجزائريون بين ظهرانيهم « فاطلقوا على المكان الذي نزلوا فيه اسم « حي المغاربة » كما كانوا يسمونهم .

طاف الخدم على الزائرين بأكواب الشربات وأطباق الحلوى ، وراح أفراد الاسرة ينتقلون بينهم مستقبليين مرحبين ، وانطلقت الاسئلة من الافواه ، موجهة الى رب الدار ، وبعضها مكرر للمرة العاشرة أو اكثر . والأمير يرد عليها كلها ، ببساطة وفصاحة ولباقة .

ونجاة ، ارتفعت في الخارج جلبة ، واقتربت من القامة ، ورن في  
أذان الحاضرين صوت نسائي متهدج يقول بلهجة مغربية واضحة :  
« هذه هي اللحظة التي نسمى اليها منذ سنتين ! »

وتلفتت الأنظار الى الباب ، وقد ظهرت فيه امرأة فارعة القامة ،  
تقود رجلا فارع القامة مثلها ، أدرك الناظرون اليه في الحال ، انه ضرير  
فقدت عيناه النور ، وأن المرأة التي معه تسنده بيدها اليسرى ، وأن  
ذراعها اليمنى مقطوعة من جلدها !

تقدم الاثنان وقد طفع وجهاهما بالبشر والغيطة ، فاخترقا القامة  
بطولها ، ووصلوا الى حيث الامير متربع على الوسائد ، وأكبا على يديه  
يفغرانهما بالقبلات ويبللانهما بالدموع ، والحاضرون يتبعونهما بأنظار  
تم عن الدهشة والفضول .

لم شخصت الابصار الى عبد القادر ...

وسمع صوته خافتا وهو يتمم اسمين ويكررها : « ابراهيم ! ..  
فاطمة ! ... ابراهيم ! .. فاطمة ! .. »

ساد الصمت بضغ دقائق ...

وارتفع صوت الامير مرة أخرى ، ساكلا :

— من أين أنتما قادمان ؟

وأجابت المرأة :

— من تونس يا مولاي ...

— وكيف وصلتما هنا ؟

— مشيا على الأقدام !

— ومن ذلكما على الطريق الى ؟

— الناس في كل مكان يعرفون مقرك .

ومن كل مكان حملونا اليك أطيب التحيات !

— متى تركتما تونس ؟

— خرجنا من مدينة قابس منذ سنتين . وقطعنا البر كله ، في



معركة سيدى ابراهيم سنة ١٨٤٥ ( الرسام فرنسي )

محاذاة الشاطيء ، فعرونا بطرابلس ، وبرقة ، وبر مصر ، وبلغنا جبال  
لبنان ، ومنها هبطنا الى الشام للقائك فيها .

ومسحت المرأة دموعها ، وأرتمت على شفيتها ابتسامة عبرت  
عن فرحها وسعادتها ، ثم قالت بصوت جهورى :

— والآن ، لا يبقى علينا الا ان نستقبل الموت ، فقد تحققت الامنية  
الوحيدة التى عشنا من أجلها ، منذ خروجنا من الوطن الجريح !

فى تلك الجلسة ، بدار الامير عبد القادر الجزائرى ، بدمشق  
الفيحاء ، عرف الدمشقيون قصة البطولة ، التى افقدت فيها ذلك  
الرجل نور عينيه ، وافقدت زوجته ذراعها اليمنى .

روى القصة بطلها ، وسامدته في الرواية بطلتها ، وكان عبد القادر من وقت الى آخر ، يفسر المبارات والكلمات المغربية ، التي تجيء على لسان الراوي أو الراوية ، ويتعلم على السامعين فهمها .

كان ذلك في سنة ١٢٦٦ هجرية ، الموافقة لسنة ١٨٤٥ للميلاد . تدفقت الجيوش الفرنسية الجارة على الجزائر خلال الايام السابقة ، وقاومها المجاهدون الجزائريون بقيادة الامير عبد القادر خمس عشرة سنة كاملة .

كان النصر ينتقل من صف الى صف ، ومن جهة الى أخرى .

في تلك السنة ، تراجع المجاهدون امام كثرة العدد ووفرة العدة ، واتخذوا مواقع جديدة على الحدود ، بين الجزائر والمغرب ، وراحوا من هناك يشنون هجوما بعد آخر على تجمعات الفزاة ، المعتدين ، ويلحقون بهم الخسائر بالارواح والعتاد ، ويقتلون منهم الاسلحة كيواصلوا بها قتالهم ...

وفي شهر سبتمبر من سنة ١٨٤٥ ، حشد الفرنسيون قوة ضاربة في بلدة « سيدى ابراهيم » التي تعرف بهذا الاسم نسبة الى القبة التي تملأ ضريح المرابط سيدى ابراهيم ، وهو من اولياء الله الصالحين ، جاء الى الجزائر من الاندلس ، وانشأ في ذلك المكان زاوية كان يلقي فيها دروسه الدينية ، فتحوّلت بعد موته الى ضريح يضم رفاتة ، ويتبرك الناس بزيارته .

عول المجاهدون على استرجاع ذلك الموقع المقدس من غاصبيه ، فزحف عبد القادر على رأس قوة من رجال القبائل ، واحتل مرتفعات جبل كركور ، على مقربة من بلدة سيدى ابراهيم .

والتحقت النساء بالرجال ، لأخذ نصيبهن من الجهاد ، فاختلطت زغاريدهن بأهازيج الحرب .

أدرك العدو الخطر المقرب منه ، وقرر أن يتفاداه قبل أن يحرق به . فتحرّكت قوة فرنسية نحو المرتفعات التي اعتصم فيها الجزائريون .

ونجاة انحدر الجزائريون صوب هذه القوة من سفوح الجبل ، وبأيديهم السيوف والبنادق . فالتحم الفريقان في قتال مرير ، وسالت الدماء غزيرة وارتفع الصياح عاليا . وفي يده المعركة ، سقط مقاتل كان يحمل علم الامير عبد القادر في مقدمة الصفوف ، فالتقط العلم منه

واحد من رفاقه ، واذا بطلق نارى يصيبه فى احدى عينيه ، وطلق آخر يصيبه فى العين الثانية ، فيهورى على الارض ويهورى العلم معه ، فتتب امرأة كانت تسير معه جنباً الى جنب ، وتأخذ العليو فيرفرف مرة أخرى ، فيبادرها ضابط فرنسى بضربة سيف مزقت ذراعها اليمنى ، لكنها ظلت ممسكة بالعلم بالذراع اليسرى ، ودفع الضابط حياته تمنا لضربه الصائبة ، فقد وجه اليه مقاتل جزائرى ضربة صائبة مثلها أردته قتيلا !

حدث ذلك حول العلم فى دقائق معدودة ، وسط الهدير والضجيج ، واحاط رفاق المرأة والرجل بهما ، وانتحوا بالجريحين ناحية أمينة ، بينما القتال يأخذ مجراه نحو نصر كلل فى ذلك اليوم المشهود شجاعة المجاهدين !

وقعت معركة جبل كركور فى الثالث والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٨٤٥ ميلادية - ١٢٦١ هجرية - وعند ظهر ذلك اليوم ، وصل جندى الى موقع الفرنسيين فى سيدى ابراهيم ، وقال وهو يلث : « ماتوا جميعا ... وانتهى كل شئ ! » ووقع على الارض يلفف أنفاسه الأخيرة ؟

فقد أفنى المجاهدون الجزائريون القوة الزاحفة عليهم عن آخرها !  
وزحفوا بنورهم نحو سيدى ابراهيم !

ضربوا الحصار على القوة الفرنسية المتمسكة فيها ، وانقضت ثلاثة أيام بين هجوم ودفاع ، فحاول الفرنسيون اقتحام الحصار وفكاه ، ليتجنبوا الهزيمة ، وكان مصيرهم كصير رفاقهم فى جبل كركور : الفناء التام !

تلك المعركة المزدوجة ، التى أحرز فيها عبد القادر الجزائري ورجال القبائل نصرا مزدوجا ، عرفت فى تاريخ الجزائر بمعركة « سيدى ابراهيم » ، ففيتها هلكت حملتان عسكريتان ، بجندوهما وضباطهما ، وكان قائد الحملتين ، الكولونيل هوتانيناك ، بين قتل جبل كركور .

أما الرجل الذى التقط العلم من حاملة القتل ، والذى فقد فى سبيله عينيه ، فاسمه « ابراهيم الابراهيمى » وهو من سكان البلدة ومن حراس الزاوية . وقد أطلق عليه اسم « ابراهيم » تبركا بصاحب الضريح ، وكنية « الابراهيمى » نسبة الى البلدة التى يقيم فيها .

وأما المرأة التى أخذت منه العلم بعد إصابته ، وفقدت فى سبيله ذراعها اليمنى ، فهي زوجته « فاطمة » .

وهما اللذان لحقا بالامير عبد القادر الجزائري بعد ثمانية عشر عاما من ذلك الحادث الرائع . والتقى به في مقره بمدينة دمشق !

خان الحظ عبد القادر ، فكف عن مواصلة القتال ، تاركا هذه المهمة لغيره في داخل الجزائر ، سنة ١٢٦٤ هجرية ، الموافقة لسنة ١٨٤٧ للميلاد ، ومشى الى الاسر ثم ذهب الى المنفى على ضفاف البوسفور .

وخرج من الجزائر فريق من رفاقه في الجهاد ، وكان ابراهيم الابراهيمى وزوجته فاطمة بين الذين رحلوا الى تونس .

كان الرجل في نحو الخمسين من العمر ، وكانت المرأة في نحو الثلاثين .

قادت بعينها البصيرتين خطواته المتعثرة ، وعلى ذراعه اليسرى اتكات ذراعه اليمنى ، في طريقه الى المنفى الذى اختاره لنفسه ولزوجته .

وصلا الى مدينة تونس . ومنها انتقلا الى مدينة قابس حيث وجدا بعض المواطنين من الجزائر . وقد رحلوا مثلها عن البلد الذى اغتصبه الاغراب .

ومرت الاعوام تثلوها الاعوام ، بطينة ، كثيبة ، بعيدة عن البهجة ولكنها غير خالية من الامل .

واختلجت في صدر الزوج الضريع والزوجة الكتمان امنية أصبحت موضع اهتمامهما وموضوع تفكيرهما الدائم : أن تساعدوا الظروف للحاق بالبطل العظيم الذى حاربوا تحت علمه ، وذاقا نشوة النصر تحت قيادته .

كان عبد القادر قد انتقل من فرنسا الى بروصة ، ولما خرب الزلزال هذه المدينة التركية فى سنة ١٨٥٥ ميلادية الموافقة لسنة ١٢٧١ هجرية قرر الذهاب الى دمشق ، واتخذها مقرا دائما له .

حمل الركبان الى تونس خبر وصوله الى المدينة السورية ، فقرّر ابراهيم الابراهيمى وزوجته أن يستأنفا السير ، بعد تلك الاعوام التى قضياها في قابس . وإن يحاولا اللحاق بالامير في مقره الجديد .

ومشيا . . . مشيا غير عابئين بشيء !

الطريق طويل ، ومخاطره كثيرة ، والمشيقة كبيرة ، والرجل لا يبصر . والمرأة بذراع واحدة !

لكنهما تحملا المشقة ، وتغلبا على المخاطر ، وقطعا الطريق الطويل ،  
ووصلوا في النهاية الى المحلة التي كانا يقصدانها : دار الأمير الجزائري  
في دمشق !

ولا خطأ الاثنان خطواتهما الاخيرة ، في نهاية الطريق ، وعند باب  
القاعة التي جلس فيها عبد القادر يتلقى تهادي الدمشقيين بميد الاضحي،  
تنفست فاطمة الصمداء ، وانبعثت من بين شففتيها تلك العبارة التي  
اثارت الدهشة والفضول : « هذه هي اللحظة التي تسمى اليها منذ  
سنتين ! »

في ذلك اليوم ، لم يقص عبد القادر بن محيي الدين ذكرياته على  
زائريه جريا على عادته ، بل استمع معهم الى اثنين من أبطال جيبيل  
كركور ، وهما يرويان ذكرياتهما عن معركة سيفي ابراهيم .  
واضاف الدمشقيون سفة جديدة من المعلومات ، الى ما كانوا  
يعرفونه عن حرب الجزائر !

وعبر عبد القادر عن اغتيباطه بوصول البطل الضريح وزوجته  
الباسلة سالين الى دمشق . وقال لهما على مسمع من الحاضرين :

« انما الآن هنا في بيتكما ، وبين أسركما . وانه لمن محاسن  
الصفى ان التقى بكما بعد فراق طويل ، في هذا اليوم السعيد ، فيصبح  
العيد بالنسبة الى عيدين !

وعاش ابراهيم الابراهيمى وفاطمة في دمشق . في دار الاسرة  
الجزائرية . ومات الرجل في سنة ١٨٦٦ ، ونقت به الجراف بعد  
ثلاثة أعوام ، ودفنت بجواره .

وكان القتال لا يزال مستمرا في داخل الجزائر ، بهذا حينئذ  
يستأنف ، ولما توفي الأمير عبد القادر في سنة ١٨٨٣ ميلادية لموافقة  
لسنة ١٣٠٠ هجرية كانت الثورات القومية في الجزائر متواصلة .  
وظلت كذلك ...





# يحييت أميرة الصحراء

تركت مدينتها الزاخرة  
باسباب التسلية ، ولغقت  
بالرجل الذي أحبها الى بطن  
الصحراء ، حيث أشعة  
الشمس محترقة ، ورياح  
السموم تهب من كل صوب !



أن المسافر الى مدينة الجزائر قاصدا الى الصحراء ، سألنا في سيره الطريق الى مدينة الاغواط ، يمر بقية ضخمة عالية هي ضريح من أضرحة الاولياء ويستريح نظره حول تلك القبة ، عدد الزائرين والمصلين ، الذين جاءوا من الحواضر والبادي ، للتبرك بذلك المقام الجليل .

وتزداد دهشته اذا ما اقترب من تلك القبة ، وتطلع الى تفاصيلها ، لأنه يرى في أحد أركانها صليبا - وما عهدنا أضرحة الاولياء المسلمين تحمل الصليبان بين جدرانها !

واذا سأل المسافر أولئك الزائرين ، لعلم منهم أن هذا أحد أضرحة آل التيجاني ، وقد دفنت فيه الاميرة « يمينة » أميرة الصحراء .

وقد ينبئه أحدهم بمعنى وجود رسم الصليب في القبة ، وقد لا يستطيع أحد منهم أن ينبئه بذلك ... والواقع ، أن « يمينة » امرأة نصرانية ، ولكنها كانت زوجة زعيم من زعماء البلاد المحبوبيين ، وولي من أوليائها الصالحين ، فلا غرابة في أن ترقد رقادها الاخير في ذلك الضريح العائلي ، وأن يصلو الصليب قبرها ما دامت قد تركت في قلوب الناس أجمعين أثرا طيبا وذكرى خالدة !

من هي « يمينة » أميرة الصحراء ؟

في سنة ١٨٧١ ذاقَت فرنسا مرارة الانكسار وتجرعت كأس الهزيمة والذل حتى الثمالة . فان الجيوش الالمانية طفت عليها ، ونكلت بجيوشها في الميادين ، ووطأت سناك الخيول البروسية شوارع باريس ، وفرضت المانيا على عدوتها القديمة شروطا قاسية فارغمتها على قبول الصلح كما أرادته الامبراطور غليوم الاول ووزيره بسمارك .

ورحلت دوائر الحكومة الفرنسية عن عاصمتها باريس ، ولجأت الى مدينة بوردو ، وجعلت تنتظر هناك ، في مأمن نسبي ، عودة المياه الى مجاريها ، وجلاء الأعداء عن أرض الوطن .

وغضت مدينة بوردو باللاجئين اليها من كل فج. وصوب . وكان بينهم أفراد أسرة معروفة ، يشغل بعضهم وظائف حكومية رفيعة .

حلت الاسرة في أحد قنادق المدينة ، وممها فتاة تدعى « أوريل بيكار » وافقت ربة البيت كوصيفة لها .

وأوريل بيكار فتاة جميلة ، اغدقت عليها الطبيعة نعمها بلا حساب ، فلا غرابة إذن في أن تلفت تلك الفسادة الحسناء أنظار الناس ، وان تنفذ سهام الحاطها الفاتكة الى أعماق القلوب .

وكان يقيم في بوردو ، في ذلك الوقت ، فريق من زعماء القبائل العربية في الجزائر ، جاؤوا الى فرنسا في أثناء الحرب السبعينية ، حاملين الى ولاية الأمور تحية قبائلهم وولاء رجالهم ، قائلين : انهم لن يثوروا على فرنسا كما أشيع عنهم ، وان شمالكهم العربية الموروثة تمنعهم من اغتنام تلك الفرصة السانحة ، وضرب فرنسا الضعيفة المهزومة من الورا .

وكان بين أولئك الزعماء رجل له عند قومه مكانة سامية وكلية مسموعة ، تردد اللسنة اسمه باحترام وتدعو له بالزم والعمر الطويل ، من الجزائر الى تونس ، ومن ساحل البحر الى أطراف الصحراء .

ذلك الرجل هو « سي أحمد التجاني » سليل أسرة نبيلة ، أنجبت للجزائر أبطالاً وعلماء وأولياء ، وحارب أبناؤها في صفوف الجزائريين من قديم الزمان ، وأبلى في الميادين بلاء حسناً . وكان آخر عهدهم بالبطولة والفروسية ، في أثناء المعارك التي خاضوها غمارها بجانب بطل الجزائر الحالد الأمير عبد القادر بن محيي الدين ، ضد الفرنسيين أنفسهم !

حمل سي أحمد التجاني لولاية الأمور في بوردو الطمأنينة التي كانوا متعطشين إليها ، وأقام مدة من الزمن في تلك المدينة الفرنسية ، حيث أحاطه الناس بأنواع الاجلال والاکرام .  
وشاعت الاقدار أن يقع نظره على الفتاة أوريل بيكار ، ابنة مقاطعة اللورين الهاربة الى بوردو مع الهاربين !

وكان الزعيم العربي في عنفوان شبابه ، وسرعان ما خلق قلبه بحب تلك الغادة الهيفاء . فرغب فيها زوجة له . وعزم على اقتلاع ذلك الفصن الرطب من الدوحة الفرنسية . ونقله الى مقره البعيد . في بطن الصحراء .

كاشف الفتاة بما كان يجول في خاطره وقال لها بلا موارد ولا رياء :



#### الفرسان !

اسمعي يا ابنتي • انني اقيم في وسط الرمال • في بقعة بعيدة عن  
المن ومناسكن الفاس • تتسلط عليها أشعة الشمس المحرقة • وتهب  
عليها رياح السموم من كل جانب • فلا شيء هناك مما يحيط بك هنا من  
أسياب الراحة والتسلية واللهو والمرح • ولكن الشعب الذي ينضم لي  
شعب شجاع شهم طيب القلب • وقد أحبتك • فهل ترغبين في اللحاق  
بي الى هناك حيث تعيشين بين أبناء قومي تحت الخيام التي لا تستغفر  
أطنابها في مكان ؟

فكان الجواب كلمة واحدة •

— نعم !

غادرني أحمد التيجاني أرض قرتسا ، ومعه زوجته أوريل بيكار !

وأقيمت في مدينة الجزائر • حفلة غريبة • لم تشهد البلاد مثلها ،  
فقد مثل الزعيم الجزائري مع زوجته الفرنسية أمام « السكرديتال دى  
لافيجرى » ممثل الكتيبة الكاثوليكية في ذلك القطر العربى • وأقسم  
أحمد التيجانى المسلم التقى الورع أمام الهيكل المسيحى بأن يحتفظ  
بزوجه مدى الحياة • وألا يتخذ لنفسه امرأة سواها •

واقسمت أوريل بىكار الفرنسية المسيحية بأن تكون لزوجها العربى  
المسلم طائفة مخصصة • وألا تعصى له أمرا في شأن من الشؤون •

وعرفت أوريل الجميلة كيف تكتسب القلوب وتتجنب بينها وبين  
أسرة زوجها كل اصطدام وخلاف ، فأحبها الناس وأطلقوا عليها اسم  
« يمينه أميرة الصحراء » •

وكانت المرأة جديرة حقا بذلك اللقب الرفيع •

فقد اخلصت لزوجها اخلاصا لاشائبة فيه • ووضعت مواهبها  
الكثيرة في خدمة القوم الذين التحقت بهم وأصبحت منهم • وعاشت في  
الجزائر نحو خمسين سنة كانت في خلالها مثال الفضيلة والأمانة والهمة  
والنشاط •

مات أحمد التيجانى فاتخذها اخوه زوجة له • ولكن الاقدار أبت  
الا أن تحترم المرأة من زوجها الثانى • وكان ذلك قبيل الحرب العظمى •

وفي سنة ١٩١٤ ، غادرت « يمينه أميرة الصحراء » مدينة الجزائر  
حيث كانت تقيم في ذلك الوقت، وانطلقت من جديد الى الصحراء لدعوة  
القبائل الى الاسراع لتجدة وطنها فرنسا •

فلبت القبائل دعوتها ، وحملت البوارج الفرنسية من سواحل  
الجزائر الى مرسيليا وطولون، ككائب الفرسان الجزائريين الذين التحقوا  
بالجيش الفرنسى اجابة لرغبة الأميرة المحبوبة ا وللمرة الثانية ، لم يفدر  
الجزائريون بفرنسا ولم يطعنوها من الخلف •

وعندما وضعت الحرب أوزارها كانت أوريل بىكار أو يمينه مقيمة  
عند أهلها في مقاطعة اللورين • بعد أن بقيت عشرات السنين بعيدة  
عن وطنها •

ولكن أخبارا مزعجة وردت عليها من الجزائر ، فان وفاة زوجها  
أحمد وأخيه الواحد بعد الآخر أثارت خلافا بين أفراد الأسرة • حول  
اختيار الزعيم الذى يحل محلها •

كانت يمينة قد بلغت الثمانين من العمر ولكنها لم تتردد في الرحيل  
فركبت البحر من جديد عائدة الى الصحراء .

وما أن وصلت الى الاغواط ، حتى التف حولها أفراد الأسرة ،  
وتعهدوا يقبول الحل الذي تراه الاميرة الجليلة المحبوبة .

وبعد أن أعادت يمينة الصفاء الى القلوب اغمضت عينيها للمرة  
الاخيرة ، مرتاحة الى النتيجة ، سميدة بما قامت به من أعمال في حياتها  
الطويلة .

ونقل جثمانها الى ضريح الأسرة ، حيث ترقد «يمينة أميرة الصحراء»  
المسيحية الفرنسية ، زوجة أحمد التيجاني المسلم العربي جنباً الى جنب  
مع أفراد الأسرة النبيلة الجليلة .







# عاشَت المغربية

سعت الزلازل من العلو :  
الثار لوطنها ، والثار لأبيها ،  
فبلغت الهلج الذي سعت  
إليه !



قررت الحكومة الإسبانية إخضاع « الريف المغربي » من ساحله الى أقصى جباله وسهوله، والضرب بيد أرائدها أن تكون من حديد ، على ما بدا هنا وهناك من حركات عصيان ، وميول الى التحرر من رقة الاستعمار وذل الاحتلال ، بين القبائل والعشائر ، وأهل المدن وسكان القرى والمزارع .

وصدرت الاوامر من مدريد العاصمة ، الى القواد والحكام ، بأن يكونوا تلك اليد الحديدية الضاربة ، وبأن يبطشوا بأولئك العرب المسودين الذين تحدثهم النفس بالانتفاض على سادتهم الاسبان .

وحشد الفاصيون جيشين لجبين ، أحدهما بقيادة الجنرال بيرانجر، عهد اليه في تطويق المنطقة التي يتزعمها «الريسول» ومحاولة استمالاته بالوعود والاموال ، والثاني بقيادة الجنرال سلفسترو للزحف في داخل البلاد وتثبيت أقدام الاسبانيين فيها .

وجمع سلفسترو جموع قواته ومن أغرتهم الوعود والهبات الإسبانية من أبناء الريف ، ووقف خطيبا فقال :

« بعد شهر واحد من هذا التاريخ ، سنلتقي مرة أخرى في القرى المشرفة على البحر، ونشرب معا أقداح الشاي الساخنة، عربون الصداقة والتعاون . واعلموا أن الاسبانيين سيشرّبون تلك الاقداح ، سواء أرضى العرب أن يشربوها معهم أم لا . وسوف تدين جميع البلاد لنا بالطاعة شتم أم أبيتم ! »

وكان الأمير عبد الكريم الخطابي في ذلك الوقت يطوف البوادي والخواصر ، مستنهضا هم الناس ، داعيا مواطنيه الى السلاح لاتخاذ الريف من نير ثقيل لا ترضى به أعناق الاحرار الأباة من الرجال فبلفته أقوال القائد الإسباني المتجرف ، وأدرك أن ساعة العمل قد دنت !

وانطلق رسله في جميع الانحاء يحددون للمجاهدين موعدا ومكانا للقاء ، وفي شهر يونيو ١٩٢١ للميلاد الموافقة لسنة ١٣٣٩ للهجرة . بدأت طلائع العرب المسلحين تقف من كل حلب وصوب ، الى المواقع التي

اختارها زعيم الثورة الريفية حول المعسكرات الاسبانية في « أنوال »  
وقد أقسم كل من الوافدين على جعل حياته فداء لوطنه ، فأما وثبة الى  
الامام ، نحر الحرية المنشودة وأما استشهاد في الميدان بين قرع الطبول  
وصهيل الخيول !

- مرحى ! مرحى ! على بركة الله !

بهذه الكلمات كان عبد الكريم واخوه وعمه وابن عمه ، الذين  
حملوا عبء القيادة في تلك الظروف المصيبة ، يستقبلون القادمين من  
شيوخ وكهول وشبان ، وقد هرعوا خفافا سراعا شجعانا ، تلبية للنداء  
وطلبا للطمع والنزال !

وابت المرأة المغربية - شأن كل امرأة عربية يوم الكريهة والنزول -  
أن تدع الرجال يستأثرون بالقتال وينفردون في البذل والتضحية ، فوفد  
على معاقل المجاهدين عدد كبير من الحضريات والقرويات والبسدييات  
ينشدن المساهمة في حرب التحرير ، ويبقن خوض المارك ، مع بولهن  
واخوتهن وفلذات أكبادهن !

- مرحى ، مرحى ! على بركة الله !

وجاءت بين النساء صبية في الخامسة عشرة من العمر ، بهيئة  
الطلعة ، واسعة العينين ، حادة البصر ، جهورية الصوت ، تبدو الجراءة  
في كل كلمة من كلماتها ، وكل حركة من حركاتها .

وخاطبت عبد الكريم قائلة :

- جئتك يا زعيم القوم في طلب ثارين ، والسعي الى هدفين ..  
عندي سيف وبندقية .. خذ البندقية لاحد رجالك ، فالسيف يكفي  
ولن اقاتل الا به ... وعندي هذه الخيل ، ورثتها عن أمي رحمها الله ،  
فخذها لبيت المال فبيت المال احوج اليها مني ... وعندي مائة وخمسون  
« دروس » اقتصدها أبي قبل موته ، فخذها أيضا وضماها الى الخيل في  
بيت المال .. ورجائي الاخير يا عبد الكريم ، ان تترك لي الحرية في طلب  
الثار كيفما شئت وأينما أردت .. فان لي غريبتين : اسبانيا التي تحاول  
اغتصاب وطني ، وضابطا اسبانيا حاول اغتصاب شرفي !

اصغى القائد المغربي بدهشة مزوجة بالاعجاب والاكبار ، الى  
حديث الفتاة النبيلة ، التي جاءت تفتي الوطن بما ملكت يداها ، فأنى  
على تلك العاطفة العربية السامية ، وروح بالصبية أجمل ترحيب :



عبدالكريم الططاي  
يوم قام بثورته سنة ١٩٢١

- لا علم الريف أمثالك يا ابنتي ! ما اسمك ؟
- عائشة .
- من أين جئت ؟
- من مدينة مليلة ...
- وابنة من أنت ؟
- ابنة أبي زيان ...
- أبو زيان ، صاحب الحانوت بجوار التكنة الاسبانية ؟
- هو بعينه ...
- هل مات أبوك ؟
- قتلة الاسبان رميا بالرصاص !
- كيف ؟ ولماذا ؟

- دعني أقص عليك ماحدث يا عبدالكريم ، فانت اليوم أولى الناس  
بمعرفة العوامل التي تحملني على طلب النار مرتين ، والسعى الى هدفين

فى آن واحد ، كما قلت لك ! لقد أصبحت الآن يتيمة ، لا سند لى ولا معين ، غير الله رب العالمين !

قصت عائشة على عبد الكريم الخطابي قصتها ، وروت له المأساة التى وقعت لها فى مدينة مليلة ، حيث كانت تعيش مع أبيها صاحب الحانوت . . .

كان أبو زيان جالسا ذات يوم كمادته، يبيع مختلف السلع للعراب والاسبان على السواء ، واذا بابنته تدخل عليه ممزقة الثياب ، محلولة الشعر ، خائفة لاهثة . فسألها عن الخير :

- أبى ، لقد كتمت عنك أمر ذلك الضابط الاسباني الذى يلاحقنى ويضايقنى ، ولكننى بلغت اليوم آخر حدود الصبر والجلد ، وأخشى أن يلحقنى منه مكروه ! فقد هاجمنى ذلك الوقع ، على مسافة يسيرة من الحانوت، وعلى مقربة من ثكنة الجيش، ولو لم أقاوم ، ثم أفلت منه مهرولة الى هنا ، لوقع منه ما يلحق بى وبك عارا لا يمحي . أبى ، لنهرب من هنا . . .

جعل « أبو زيان » يهدى روع ابنته ، ويلطفها ، ويعيد الطمأنينة الى نفسها . وعلم منها أن الضابط « كارلوس » الذى يمر بالحانوت فى ذهابه واوربته بين الثكنة والمدينة، هو الرجل الذى تتهمه الفتاة بأنه يحاول الاعتداء عليها ، ويواصل اغرامها واغواها ، بالوعد حيناً وبالوعيد أحيانا ، وأنه فى ذلك اليوم تناول عليها بجرأة لا يقدم عليها غير رجل يثق بأنه فى مأمن من العقاب ، ويعيد عن تناول العدالة !

وكررت الفتاة رجاسها :

- لنهرب يا أبى من هنا . . . فان المغربى أصبح غريبا فى وطنه ، وبنات المغرب أصبحن معرضات للاذى فى عقر دارهن ، من أولئك العلوج الاجلاف !

لكن أبا زيان طبع على جبين ابنته قبلة حارة ، واخذ رأسها بين يديه ، وقال وهو يتصنع الهدوء والطمأنينة :

- كلا يا عائشة ! لن نهرب . بل ان ذلك الضابط الاثيم هو الذى سيهرب من البلدة ، الى غير عودة !

وفى اليوم التالى ، قبل شروق الشمس ، كان أبو زيان متربعا للضابط خلف حانوته الصغير، وقد أمر ابنته بأن تقف متممة فى طريق

الاسباني . فوثق ما كان بالحسبان ، وعاد الرجل تهجمه على الفتاة وحاول أن يستدرجها الى التكنة ، واذا بصاحب الحانوت يشب من مخبئه ويلقي على المعتدى الاثيم درسا قاسيا ، فيشبعه ضربا ، ويفهمه أن للاعراس العربية حماة يدفعون عنها الاذى ، وحراسا يحرسونها من عدوان الارذال اللثام .

لكن الضابط الذي تجرأ على فتاة ضعيفة ، جعل يستغيث ويحاول الافلات من قبضة الرجل القوي ، فاسرع لاغائته لفيف من رفاقه ، واحاط اولئك الرفاق بالاب وابنته ، وتلقت عائشة على رأسها ضربة شديدة ألقدتها الوعي فسقطت على الارض .

وعندما أفاق من غشوتها ، وجدت نفسها جنباً الى جنب مع أبيها وقد أصبح جثة هامدة ، مزقا الرصاص وحطمت الاقدام رأسها ١٠

ترك الاسبانيون الضحيتين على التراب ، في بركة من الدماء ، وعادوا من حيث أتوا آمنين مطمئنين ضاحكين !

وتجمع العرب حول القتل وابنته ، فحملوا الجثة الى الحانوت وراحوا يعززون الفتاة راجين لها الصبر والسلوان !

ورفعت عائشة أمرها الى القيادة الاسبانية فصدت في وجهها الابواب ، وقيل لها : ان الضباط الذين قتلوا أباهم كانوا في حالة الدفاع عن النفس ، وانها على ضلال في اعتقادها أن الاسباني لا يحق له أن يقتل العربي دون أن يتعرض للمقاب !

وإدركت الفتاة أن ثار العربي في بلد يحتله الاجنبي يؤخذ أخذاً ، وان حالة الافراد كحالة الشعوب ، فالاجنبي المقتصب لا يعطى الفرد عدلا ولا يمنح الشعب حقاً ، وانما كل شيء ينتزع منه انتزاعاً : فدية القتل وفدية الوطن !

ولهذا ، عولت عائشة المغربية ، ابنة أبي زيان صاحب الحانوت في مليلة على الالتحاق بالمجاهدين في مآقلهم ، طلباً للثأرين ثار الأيـ الشهيد وثار الوطن المستعبد .

وختمت عائشة حديثها قائلة :

.. هذه قصتي يا عبد الكريم ! فقد حملت معي البندقية والسيف،

اللذين كان أبى يخيئهما لليوم العصيب ، وحملت ما نملك من حل  
ونقود ، وجئتكم للجهاد فى صفوف المجاهدين ، والاستشهاد فى مواكب  
المستشهدين !

فى الواحد والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩٢١ ، وثب العرب  
وثبتهم الأولى ، وضح القضاء بالتهليل والتكبير ، وصمت الأذان صيحات  
المجاهدين ، المنطلقين على خيولهم ، وليس فى أيديهم غير البنادق  
والصوامر ، نحو اعشاش المدافع والرشاشات !

وخلد عبد الكريم الخطاى وأبطاله فى سجل التاريخ يوما من أيام  
العرب المجيدة ، هو يوم « أنوال » النير الوضح !

فى تلك المعركة الرائعة ، التى ظلت مشتعلة الاوار ثلاثة أيام  
كاملة ، فتسكت حفنة من رجال المغرب ونسائه بعشرين ألف اسباني  
مسلمين ، ذبحوا ذبح الانعام ، فلم يفلت منهم غير عشرات ألقوا السلاح  
وطلبوا النجاة بالهرب من الميدان ، وحاول ثلاثة الاف منهم ، بقيادة  
الجنرال « نافارو » أن يتقنوا الموقف ويمحو العار عن الجيش الاسباني ،  
ولكنهم ارغموا على التسليم فأرسلوا الى معتقلات الاسرى فى الجبال !

وفى تلك المعركة ، بين الاسبان المضطربين المنهزمين ، عثرت  
عائشة المغربية بغيرهما « كارلوس » الذى حاول أن يسلبها شرفها ،  
والذى كان سببا فى موت أبيها ، فصاحت به :

— سيفك يا أنذل الرجال ! فالفتاة المغربية لا تعتدى على اعزل ،  
ولا تقتل من لا سلاح بيده ، يدافع به عن نفسه ! سيفك !

فار غاثى الرجل ، لرؤية تلك الصبية الحسناء التى زجرتة واذاقتة  
المهانة فى مليلة فوثب عليها والسيف بيده ، واشتبك النصلان فى عراق  
عنيف ، ومزق سيف أبى زيان صدر الضابط الاسباني ، كما مزق من  
قبل رصاص الاسبانيين صدر صاحب الخانوت وهو يدافع عن ابنته !

كانت هزيمة الفاصيين فى تلك المعركة متكرة كاملة .

عشرون ألفا قتلوا . وثلاثة آلاف أسروا . فدفعت حكومة أمبانيا  
خمس ملىونا لافتدائهم وغنم العرب ستين مدفعا ، ومئات من مركبات  
النقل ، وأدوات المواصلات ، وعشرات الآلاف من البنادق ، وما يكفى من  
المؤن والذخائر لمواصلة حرب التحرير !



والشجر القائد العام الجنرال سلفستر فى الميدان ، وهويرنى بفيليه  
تمزق جيشه وذلة بلاده !

وفازت عائشة المغربية بالثارين وبلغت الهدفين !

ومضى عبد الكريم الخطايبى من نصر الى نصر ، راجياً أن يحقق الله  
آمال المغرب على يده ، أو على يد غيره من بعده اذا شاء ، فهو وحده العلم  
التقدير !



# رسالت وامرأة

---

ما أكثر الأبطال المجهولين  
في الثورات والحروب ، وما  
أجندهم بالاعجاب والتقدير !



أرسل الأمير عبد الكريم الخطابي في طلب رجل من أبطاله المخلصين الأوفياء - وكان جميع رجال عبد الكريم أبطالاً أوفياء مخلصين - واختل به في مركز قيادته ، وأسر إليه قائلا :

... لقد اخترتك اليوم يا قاسم من بين الرفاق المجاهدين ، لأعهد اليك بمهمة يتوقف عليها فوزنا في هذه المرحلة من حرب التحرير التي خضفنا غمارها معتمدين على الله . فنحن الآن في السنة الرابعة من جهادنا، وقد انقسمت جيوشنا الى قسمين : قسم يحارب في هذه الجبهة الشرقية، وقسم يحارب في الجبهة الغربية بقيادة أخي محمد . وهذه رسالة تحوي الكثير من الأسرار ، وتبسط الخطة التي قر الرأي على تنفيذها في الجبهتين معا ، وفي وقت واحد . وأنا في حاجة الى رسول أمين مقدم ، يحمل هذه الوثيقة الى أخي محمد في مركز قيادته بالقرب من شفشاون . فخذها وتوكل على الله . واعلم أن وقوعها في أيدي الأعداء قد يجد علينا الوبال ، ويسبب اراقة دم مغربي نحن به ضئيتون، ويفسد علينا خطتنا ويؤخر يوم النصر .. اذهب برعاية الله وتوفيقه !

عاقب القائد رسوله ، الذي تناول من يده الرسالة المخفية في غلاف من الجلد ، وخباها في طيات ثوبه ، وقد بلغ به التأثر مبلغه فلم تخرج من فمه غير هذه الكلمات :

... شكرا ! ستصل الرسالة ! .. ولن تقع في أيدي الاسبانيين مهما تكن المخاطر التي تحف بي !

وانطلق قاسم مشيما بنظرات الامير المغربي وتمنياته .

كانت ثورة الريف المغربي ، التي نشبت في شهر مايو سنة ١٩٢١ للميلاد ، الموافقة لسنة ١٩٣٩ للهجرة ، قد تحولت شيئا فشيئا الى حرب نظامية حقيقية ، وذلك منذ أن مرق عبد الكريم جيش الاسبان تمزيقا مروعا في معركة د أنوال ، في شهر يوليو من السنة نفسها ، ففي تلك المعركة التي استمرت ثلاثة أيام بلياليها ، كتب الفوز لحفنة من المجاهدين المغاربة على عشرين ألف أسباني ذبحوا من آخرهم ، وثلاثة

الآلاف سلموا أنفسهم مفضلين الأسر على الموت ، ولم ينج من ذلك الجيش اللجب غير بضع مئات تسلموا الى مدينة « مليلة » ليذيعوا فيها خبر الكارثة الماحقة . إما قائد الاسبانيين ، الجنرال سلفستر ، فقد انتحر فى الميدان حزنا وغيظا !

وكانت أسلاب المعركة كافية لتسليح جيش المجاهدين . فقد غنموا ستين مدفعا ، وعشرات الآلاف من البنادق والرشاشات ، وكميات عظيمة من معدات القتال والنقل والمواصلات والذخائر . ورتب عبدالكريم جيشه منذ ذلك اليوم كتائب من المشاة والفرسان والمدفعية ، وراح ينازل خصومه حينما وجدهم ، بل يطاردهم من موقع الى موقع ، وينتزع منهم أرض الوطن المغربي رقعة بعد رقعة ، ومدينة بعد أخرى !

فى صيف سنة ١٩٢٤ عول القائد المجاهد على توجيه ضربة قاضية الى العدو ، الذى تلقى المدد من أسبانيا ، وأعد الصدة لهجوم مضاد ، على أمل استرجاع ما فقده الاسبانيون فى السنوات الثلاث السابقة . ولهذا ، فقد عمد عبد الكريم الى انشاء جبهتين : جبهة شرقية يقودها بنفسه ، وجبهة غربية عهد بقيادتها الى أخيه وساعده الأيمن ، وقد عرفت المارك التي اشتبك فيها المغاربة بالاسبانيين فى الجبهة الاولى ، طوال الصيف وشطرا من الخريف ، بحرب « سيدى مسعود » وعرفت معارك الجبهة الغربية ، بحرب « شفشاون » أو على طريقة الاختصار فى لفظ أسماء البلدان عند المغاربة ، بمعركة « الشاون » .

تأهب كل من القائد العام وأخيه لبنة الهجوم فى آن واحد . فكان على الأمير محمد ، فى الجبهة الغربية ، أن يستولى على بلدة « شفشاون » ويطرد الاسبانيين نحو الساحل . وعلى الأمير عبد الكريم أن يشدد الحناق على جزء من الجيش الاسباني المطوق فى الجبهة الشرقية ، وأن يمنع الجزء الآخر من نجدة الحامية المرابطة فى « شفشاون » فيخف الضغط عن أخيه ..

وحمل المخبرون المنبثون فى جميع الانحاء الى عبدالكريم انباء هامة عن حركات الاسبانيين ، وعن الامدادات المغربية المرتقبة ، ورسم الأمير خطته النهائية ، ودون كل ذلك فى خطاب عهد الى رسوله « قاسم » بحملة الى أخيه . وعلى مضمون ذلك الخطاب كان يتوقف مصير المعركة القادمة ، أو على الأقل بعض مصيرها .

بينما كان الأمير محمد ذات يوم يتشاور مع أقرب معاونيه فى توزيع



في مدينة شمشاون بكثيف  
الغروب حيث هزم العرب  
الجيش الاسياني

قواته ، وتعين مهمة كل كتيبة من كتائبه ، اذا برجاله يسوقون اليه  
امراة بدوية في حالة يرثى لها من الاعياء ، مهلهلة الثياب فاغرة العينين ،  
وقد تجدد الدم على فمها وخديها ، وجميع الدلائل تدل على انها ولدت  
خرساء او فقدت النطق على اثر حادث وقع لها ..

الغربية ، وانسحب الاسبانيون من بلدة « شفشان » فدخلتها القوات العربية ، وسط الاهازيج وقرع الطبول ، تخفق فوقها الاعلام ويضحك لها الجو الصافي . وتقهقر الاسبانيون الى « تطوان » و « سبتة » و « العرائش » حيث اعتصمت فلولهم مذعورة مرتبكة . وجمع المجاهدون غنائم المارك واسلأها ، واستعدوا لوثبة أخرى الى الامام ، لتطويق العدو على طول الساحل والقضاء عليه ...

لكن العدو المرتجف الخائف ، راح يفكر بعد تلك السلسلة من الكوارث في طريقة يتجنب بها الهلاك ، فحاول التخلص من خصمه باغتياله ولكن المؤامرة فشلت . فعمد الى طلب النجدة من دولة أخرى ! فان اسبانيا في محنتها قررت أن تبسط يدها لجارتها فرنسا ، لكي تمدها بالرجال والعتاد ، فتتعاون دولتان كبيرتان ، تملكان الجيوش والاساطيل والطائرات ، في القضاء على شعب لا يتجاوز عدده مليوناً واحداً ، ولا يطلب غير قسطه من الحياة ، ومكانه تحت الشمس ، ونصيبه من الحربة !

بعد معركة « شفشاون » ، أمضى الأمير محمد الى أخيه الأمير عبد الكريم بما يساوره من دهشة واستغراب ، بشأن المرأة التي حملت اليه الرسالة في مركز قيادته . ولم يكن عبد الكريم قد عرف شيئاً بعد عن رسوله « قاسم » ، فتولاه القلق ، وجعل القائدان الاخوان يستفهمان ويستقصيان الاخبار ، فتمكنا في النهاية من معرفة حقيقة ما حدث ، أو بعض الحقيقة ..

فقد عنرت فصيلة من الفرسان المغاربة على جثة « قاسم » مشوهة تطرق اليها البلاد ، خلف آكمة وعرة ، على مسافة خمسين كيلومتراً من مدينة « شفشاون » . وقال أسير من الاسبانيين : انه وبعض رفاقه قتلوا رجلاً عربياً في ذلك المكان . فاستنتج الاميران من ذلك أن امرأة بموية كانت على مقربة من الاكمة ، فرأت الاسبانيين يطلقون الرصاص على الرجل وأسرعت لنجدته ، وان قاسم سلمها الرسالة وطلب منها أن تحملها الى مقر القيادة فتعمدت له بذلك وتركته ميتاً او مشرفاً على الموت ، ثم واصلت السير فداهما الاسبانيون ايضاً واطلقوا الرصاص عليها فاصيبت في عنقها وفمها ، وكانت الاصابة سبباً لفقدانها النطق ، فاصبحت خرساء ولكنها تجللت ، وتحملت آلامها ، وواصلت السير

١٩١

اسبانيا المطلق ، الجنرال الدكتاتور بريمو دي ريفيرا ، أن يتولى قيادة الحرب بنفسه ، فغادر عاصمته مدريد قاصداً الى المغرب ، حيث حشد جيوشاً لجهة جديدة ، كان مصيرها أشد هولاً من الجيوش اللجة السابقة . فقد انتصر عبد الكريم في الجبهة الشرقية ، وانتصر محمد في الجبهة



الغربية ، وانسحب الاسبانيون من بلدة « شفشان » فدخلتها القوات العربية ، وسط الاهازيج وقرع الطبول ، تخفق فوقها الاعلام ويضجك لها الجوال الصافي . وتقهر الاسبانيون الى « تطوان » و « سبتة » و « المرائش » حيث اعتصمت فلولهم منعورة مرتبكة . وجمع المجاهدون غنائم المارك واسلأها ، واستعملوا لوثبة أخرى الى الامام ، لتطويق العدو على طول الساحل والقضاء عليه ...

لكن العدو المرتجف الخائف ، راح يفكر بعد تلك السلسلة من الكوارث فى طريقة يتجنب بها الهلاك ، فحاول التخلص من خصمه باغتياله ولكن المؤامرة فشلت . فعد الى طلب النجدة من دولة أخرى ! فان اسبانيا فى محتها قررت أن تيسط يدها لجارتها فرنسا، لكي تمدها بالرجال والعتاد ، فتتعاون دولتان كبيرتان ، تملكان الجيوش والأساطيل والطائرات ، فى القضاء على شعب لا يتجاوز عدده مليوناً واحداً ، ولا يطلب غير قسسطه من الحياة ، ومكانه تحت الشمس ، ونصيبه من الحرية !

يصد معركة « شفشان » ، أمضى الأمير محمد الى أخيه الأمير عبد الكريم بما يساوره من دهشة واستغراب ، بشأن المرأة التى حملت اليه الرسالة فى مركز قيادته . ولم يكن عبد الكريم قد عرف شيئاً بعد عن رسوله « قاسم » ، فتولاه القلق ، وجعل القائدان الاخوان يستفهماً ويستقصيان الاخبار ، فتمكننا فى النهاية من معرفة حقيقة ما حدث ، أو بعض الحقيقة ..

فقد عثرت فصيلة من الفرسان المغاربة على جثة « قاسم » مشوهة تطرق اليها البلاء ، خلف آكمة وعرة ، على مسافة خمسين كيلومتراً من مدينة « شفشان » . وقال أسير من الاسبانيين : انه وبعض رفاقه قتلوا رجلاً عربياً فى ذلك المكان . فاستنتج الاميران من ذلك أن امرأة بدوية كانت على مقربة من الاكمة ، فرأت الاسبانيين يطلقون الرصاص على الرجل وأسرعت لنجدته ، وان قاسم سلمها الرسالة وطلب منها أن تحملها الى مقر القيادة فتصمت له بذلك وتركته ميتاً أو مشرفاً على الموت ، ثم واصلت السير فداهما الاسبانيون أيضاً وأطلقوا الرصاص عليها فاصيبت فى عنقها وفمها ، وكانت الاصابة سبباً لفقدانها النطق ، فاصبحت خرساء ولكنها تجللت ، وتحملت آلامها ، وواصلت السير

وسلمت الأمانة الى صاحبها ، ولكنها دفعت حياتها ثمناً لذلك الوفاء  
المغربي ، ولتلك الشهامة العربية !

هذه قصة بطولة امرأة مجهولة ، في حرب الريف المغربي ، وما  
أكثر الأبطال المجهولين في الثورات والحروب ...

لقد وصلت رسالة عبد الكريم الى أخيه بفضـل تلك المرأة التي  
لا يعرف اسمها أحد !

## فهرس

الموضوع	الصفحة
أهداء .. .. .	٣
تصدير .. .. .	٥
زيتونة على قبر .. .. .	٩
الموت أو العار .. .. .	١٧
القمران .. .. .	٢٧
قبر الرومية .. .. .	٣٥
ابن القصر .. .. .	٤٥
ثورة على روما .. .. .	٥٣
قديس وحورية .. .. .	٦٣
صهريج القيروان .. .. .	٧١
غادة الدير .. .. .	٨٩
معركة الملوك الثلاثة .. .. .	٩٩
القميص الأذهب .. .. .	١٠٩
مرتة سلطنة المغرب .. .. .	١١٩
نفيسة الجزائرية .. .. .	١٢٩
توكرت غادة الوادي .. .. .	١٣٩
قبة سيدي الشيخ .. .. .	١٤٧
البطل الضريع .. .. .	١٥٧
يمينة أميرة الصحراء .. .. .	١٦٧
عائشة المغربية .. .. .	١٧٥
رسالة وامرأة .. .. .	١٨٥





**الدار القومية للطباعة والنشر**



الكتاب المدرسي للطب العامة والشيخوخة

Biblioteca Alexandria



0272398